علي يوسف علي

مواقف إسلامية

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م

الإهداء

الى جناب الوالدين اللذين ربياني صغيرا بالنزعة الحكيمة...

وعلماني كبيرا بالفطرة السليمة .. ذلك رغم أميتهما..

اليهما أهدي هذه « المواقف » طاعة لله فيهما، واستجابة لنداء القرآن الكريم بخصوصهما.

علي يوسف علي

بسم الله الرحمن الرحيم

« تقريظ »

ـ مواقف إسلامية ـ

يحتوي هذا « الكتاب » على موضوعات متنوعة ومقالات متفرقة تتناول جوانب شتى فهناك مقالات عن أمثلة، ونماذج من سلف الأمة مما يدخل في باب التأريخ والتربية، وهناك مقالات عن الحرية وحرب العصابات مما يدخل في باب السياسة، وهناك مقالات في وليمة العرس والشيلة.. مما يدخل في باب الاجتماع، وهناك مقالات في الآذان والصلاة مما يدخل في باب الفقه وهكذا.

كتب « الكتاب » بأسلوب عصري سلس جذاب وفيه آراء نقدية تستحق النظر وهو في جملته محاولة جادة لإصلاح المجتمع عن طريق النظرة الموضوعية التحليلية لأدواء المجتمع، وفي اشاراته الى ما كان عليه سلف الأمة

ما يدفع للإحتذاء والمحاكاة، ولا يخفى ما للقدوة من اثر فاعل في مجال التربية.

وأحسب أن دائرة قراءة مثل هذا الكتاب دائرة واسعة منداحة فهو مما يحتاج إليه الصغار والكبار، وشبابنا بالذات أحوج إليه ممن سواه، وأتوقع أن يجد قراءً من ذوي الثقافة المتوسطة ومن ذوي الثقافة العالية، وذلك أنه يطرق مواضيع ذاتَ أثر حي على حياة الناس..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتور / الحبر يوسف نور الدائم
جامعة الخرطوم ـ كلية الآداب
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

« مقدمة »

ما أكثر المواقف الاسلامية.. وما أعظمها.. وما أشدها قوة، وألطفها لينا، وأرحمها رحمة.. وأندرها ندرة.. نعم تلك هي المواقف الخاصة ــ المحدودة.. اذا ما أردنا أن نتحدث من جوانب تلك الزوايا الضيقة المحسوبة.

أما تلك المواقف ، من حيث الشمولية المطلقة.. أو العمومية الضافية فلقد تشتمل على كل أفعال المسلمين، وأقوالهم.. وتنتشر في جميع ساحات أعمالهم.. فاذا بنا نجدها كلها مواقف.. تستدعي الوقوف.. وتسترعي الانتباه فما من سلوك سلكوه الا وأثار العجب.. حيث لا عجب.. فهو يثير العجب لكونهم أتوا لتغيير شامل أزاء مجتمع عاطل وقف به الزمن وقوف الساعة المعطوبة فآل أمرهم الى الفساد والافساد في كل جانب من الجوانب..

أتوا لتغيير العقائد الوثنية.. والعادات الوهمية.. والتقاليد الأبوية التي ورثوها كابراً عن كابر.. وأشربوها صغيراً عن كبير.. جاؤوا لاستبدال من في الأرض كلهم جميعا.. لإعادة وضعهم في موضع آخر.. جاؤوا لجعل عاليها سافلها وسافلها عاليها.. وذلك بتحطيم حيوانية الانسان التي كان يسير عليها لرفعه.. الى انسانية الانسان التي ما كان يحلم بها.. فجعلوا بذلك عالي الحيوانية سافلها.. كما جعلوا سافل الانسانية عاليها..

فاذا بالتغيير تغيير جذري للبشرية، واذا بالتحويل تحويل كلي للإنسانية فكان بذلك التبديل التام لهذا الخلق العجيب.. من مخلوقات الله في أرض الله أوليست هذه كلها.. وبحذافيرها.. مواقف.. ومن هو ذلك الذي يستطيع أن يتحدث في جميع تلك الأمور..

أن مواقف الإسلام ليست قاصرة على عدد من المواضيع يظن بها الفرد أنه قد أتى على جميعها.. ومواقف المسلمين.. وهم يسيرون على نهج الإسلام.. ليست مما تحتويها الصفحات.. لأنها لا حدود لها في انطلاقها، ولا قيود لها في جغرافيتها، ولا سدود لها في مناكب المشرقين، والمغربين.. على وجه هذه البسيطة..

ومن هنا.. فعندما نتحدث عن المواقف انما نتحدث عن

تلك المواقف المحددة المقيدة بل المحصورة المسورة ان جاز هذا التعبير.. ثم نحن بعد ذلك كله لم نأت عليها جميعها..

وإنما نأخذ منها أطرافا، وننهل منها جوانب ونتناول منها نبذا جد ضئيلة.. لعلها تكون نبراسا يضيء الطريق.. وعلما يكشف المحجة ونوراً يهدي سواء السبيل.

وهذا ما عنيناه بكتابنا « مواقف إسلامية » الذي بين أيديكم راجين من الله عز وجل أن يجعل مسلمي اليوم.. في مثل مواقف أبطال الأمس حتى يتناول أبناء الغد ــ ان شاء الله ــ ما يضيء طريقهم وينير سبيلهم مثل ما كان من سلفنا الصالح وأعلامنا الميامين، وعباقرتنا الافذاذ الذين ملأوا الأرض علما وعدلا، وبرا وحكمة، وخيرا ورحمة.

علي يوسف علي

« من مواقفه ﷺ »

الرسول ﷺ هو أسوتنا الحسنة ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**..﴾[1] وهو قدوتنا نسير على ركبه ونترسم خطاه، ونتدارس أمره فنأخذ العبرة من مواقفه، والعظة من مشاهده..

ولما كان الأمر كذلك حق علينا أن نورد في موضوعنا هذا ما يغنينا عن الالتفات الى غيره.. على حد قول القائل: « ظهر الصباح فأطفأ القنديلا » فمن مواقفه الجليلة ﷺ: أنه شهد غزوة « أحد » وصبر على ما يعجز عنه الأبطال ويهاب منه الجسور القتال.. فشج وجهه وكسرت ثنيته ووقع على حفرة دبرها له المنافقون.. وفي هذه الغزوة فر من أصحابه الكثيرون من هول المعركة ومفاجأة الموقف.. ثم لحقوا به وحضروا الى ساحته وتقاتلوا مع المشركين حتى أزاحوهم عنه ﷺ وعندئذ قال بعضهم « يا رسول الله

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.

الا دعوت الله عليهم « يعني » أفلا تدعو الله حتى يهلك المشركين، علما بأن دعوة الأنبياء لا ترد.. فماذا كان موقف الرسول ﷺ من هذا الطلب الملح من أصحابه الكرام وقد أثخنتهم الجراح.. وماذا كان موقفه وهو الذي عانى منهم ما عاناه وأصابه ما أصابه قال عليه الصلاة والسلام جوابا على سؤالهم « إني لم أبعث لعّانا ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون ».

وهنا أترك القارىء العزيز ليتدبر مثل هذا الموقف العظيم، ولقد سلط عليه أهل « ثقيف » وهم قوم يسكنون جهات الطائف سلطوا عليه سفهاءهم « والصعاليك » من فتيانهم يضربونه بالحجارة ويطردونه من مدينتهم وهو الذي جاء لهدايتهم وتكبد المشاق لتبليغهم فكان ذلك من كرم ضيافتهم له، وما زالوا به حتى أخرجوه من ديارهم، فما كان موقفه ﷺ أزاء هذه الفاجعة إلا أن تضرع الى الله يشكو بثه وحزنه.. « اللهم أني أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس » ولو أراد ﷺ لدعا عليهم فأهلكهم..

ويطارده عمه « أبو لهب » وأعوانه ومن سلطوهم عليه بألوان العذاب وأنواع الإهانة.. بين جمهرة الناس في الأسواق والطرقات، ويرمونه بالحجارة حتى تدمى قدماه.. فلا يقول عنهم شيئا.. ولو دعا الله لخسف بهم الأرض أو أمطرهم بعذاب من السماء.. ولكنه رحمة الله للعالمين،

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**[1]﴾ وهديته المهداة الى الناس أجمعين وهو القائل ﴿**إنما أنا رحمة الله المهداة**﴾ وهو قبل هذا وبعده صاحب الخلق العظيم ﴿**وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّواْ من حولِكَ**﴾[3].

فبمثل هذه المعاملة الطيبة الطاهرة وبمثل هذا الصبر الذي لا يكاد يصبره الصابرون ألّف الرسول ﷺ ـــ باذن ربه بين القلوب وجمع بين النفوس، فدخل الناس في دين الله أفواجا، وهو القائل في مثل هذا المقام تبشيرا لأمته وتحفيزا « أقربكم مني منزلة يوم القيامة احسنكم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون.. »

والرسول ﷺ لم يقف مثل تلك المواقف الا ارضاء لربه وطلبا لرضوان خالقه.. وليكون أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

عزيزي الكريم إن لرسول الله ﷺ « مواقف » لا تحصى في ساحات لا تعد.. وهو يعطى كل ساحة من الساحات حقها.. لينا وشدة، وكرما، وشجاعة..

ويكفينا في المقام الأخير من مواقفه ما قاله عنه.. قائد

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٢) سورة القلم آية ٤.

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩.

الأبطال على كرم الله وجهه « كنا اذا احمرت الحدق وحمي الوطيس نلوذ برسول الله ﷺ حتى لا يكون أحد منا أقرب الى العدو منه ». فصلى الله عليه وسلم..

من مواقف الفاروق

كثيرا ما تحدث الناس عن عمر رضي الله عنه وعبقريته، وتكلموا عن كريم صفاته وأخلاقه..

ونحن هنا — نود أن نتحدث عن بعض مواقفه الإسلامية. ونتقصى بعض جوانبه الربانية.. لعلنا نتأسى ولو ببعض أفعاله، ونستحث هممنا من وراء أعماله.. فلقد كان الفاروق عمر وهو الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين الذين يشار اليهم بالبنان وما ذكر الإسلام في روعة جماله، وبهاء أبهته الا ذكروا معه جنبا الى جنب.. فهم ظله الظليل، ودوحته الوارفة وثمرته اليانعة..

كان عمر رضي الله عنه قوي الشكيمة، مهاب الجانب، عنيف المزاج لا يعبأ بذكر ما يراه ولو كره الجميع..

ثارت ثورته ذات يوم فسل سيفه وحث خطوه.. يريد

قتل نبي الإسلام فاذا به يرجع من طريقه مؤمنا قوي الايمان.. مسلما يظهر كل حق على ملأ من الناس ولو كره المشركون.. ولأول مرة بعد إسلام عمر يخرج المسلمون فيصلون عند الكعبة.. وما جلس عمر مكانا بالكفر إلا وجلس فيه بالايمان.. فلقد كان رضي الله عنه لا يحب السهل من الأمور بل يأخذ بالطرف الأقصى من الأمور كلها.. وعندما هاجر المسلمون خفية.. فما كان من عمر الا أن هاجر جهرة بعد أن طاف بالبيت، وأعلن في الناس قولته الشهيرة « من أراد أن تثكله أمه أو يؤتم ولده ويرمل زوجته فليخرج معي وراء هذا الوادي ». إستشار الرسول ﷺ أصحابه في أسرى « بدر » فكان موقفه أن يقتلوا تقتيلا.. وخالفه في ذلك أبو بكر فتنزلت الآيات تؤيد عمر.. فلقد كان الحق يجري على لسانه وقلبه وعنه قال رسول الله ﷺ « أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ».

لقد عرف عمر بالعدالة المطلقة واشتهر بالحزم المهيب.. حتى ليتراءى للإنسان أحيانا أنه يبالغ في أمره.. فكان يضاعف الجزاء في العقوبة على أهله وذويه أكثر من عامة الناس، كما كان يجعلهم في الدرجة الأخيرة في العطاء والمثوبة.. ولم يولّ عمر أحداً من أهله في عمل من الأعمال طيلة فترة خلافته.. مع أنك وبما وجدت فيهم من هو أولى الناس من غيره.. إلا ان هذا هو موقفه رضي الله عنه.. وقد

أقام حد شرب الخمر على ابنه وفلذة كبده حتى توفي بسبب الحد.

فلقد كان الناس يخشونه كثيرا ثم ازدادت خشيتهم له بعد أن تولى الخلافة، فقالوا عنه الكثير متخوفين فبلغه ما قالوه فوقف فيهم خطيبا فقال « بلغني أن الناس خافوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ أيها الناس فاعلموا ان تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا الين لهم من بعضهم لبعض ».

يا لله ! يا له من حديث رائع يستطيع كل مسلم أن يقطف ثماره ويجني مأكله.. فهو موقف أصيل يظهر فيه عمر أنَّ باستطاعته أن يملك زمام نفسه ويقودها حيث يريد عقله ويتجه به دينه فلا شيء يستعصي عليه من ذلك كله..

وفي الواقع قد طبق كلماته تلك بحذافيرها.. فكان شديد العطف على الفقراء والمساكين قوى الردع على الظلمة والمجرمين.. فكفكف الدموع.. وحمل الدقيق على كتفيه لاطعام ذوي الحاجة.. وأحصى ثروة الولاة قبل أن يوليهم عملا من أعمال المسلمين ثم أخذ يحاسبهم كل عام، بل

يأمرهم عند الحضور أن يدخلوا المدينة نهارا.. يا للعجب.. فأين المعز ؟.. ثم ان عمر لم يكن ليكتفي بهذا بل جعل هنالك تفتيشا دقيقا عليهم ومراقبة صارمة يستفتي فيها شعب كل والٍ على حدة.. فيسأل في كل عام في موسم الحج أهل كل قطر من تلك الأقطار عن واليهم، ماذا يفعل بهم.. وماذا أقام فيهم من أصلاح..

ولقد حاسب خالدا وعمرو بن العاص، وأبا هريرة واقتسم معهم أموالهم لبيت المال..

فلقد كان عمر لا يهدأ له بال في حراسة حقوق المسلمين حتى ذهب به الأمر الى درجة تفوق الوصف والتعبير.. فكان يحرس بنفسه التجار القادمين ليلاً هم وأموالهم ويعالج ابل الصدقة بيديه.. لأنها أموال الأمة فلا بد وأن تصان وبيد أمينة كل الأمانة.. وكما كان يعطى العاجز أيا كانت ديانته لصيانة حياته كذلك جعل راتبا للطفل منذ ولادته.. هكذا كان عمر في وقت الرخاء وعندما أصابت المسلمين ازمة حادة تلك التي عرفت « بعام المجاعة » حرم على نفسه الطعام واكتفى بالزيت منه حتى أسود لونه وتغيرت سماته وقال في ذلك قولته الشهيرة « بئس الوالي أنا ان شبعت والناس جياع ».

ومن حرصه على الرعية انه كان يمشي ليلا يتفقد أحوال

الناس ثم ينظر إلى حل قضاياهم وليعلم القارئ الكريم ان عمر لم يتسلق في يوم من الأيام جدار منزل من المنازل كما يزعم ذلك بعض جهلة الناس فهو خير مكذوب عليه دسه الوضاعون ليخدشوا به سيرة عمر فلقد كان عمر يأتي البيوت من أبوابها، وحاشى له أن يكون كالطفل يتسلق جدارها.. كما أن عمر من أدرى الناس بأحاديث الرسول ﷺ وهو يعلم كيف ان الرسول ﷺ قال لمن نظر اليه بثقب الباب وهو يسرح شعره : لو كنت أعلم أنك تنظر لفقعت عينيك بهذا.. مشيرا الى المشط الذي كان بيده ﷺ..

ولو أن عمر شاهدهم يشربون.. فكيف يسامحهم، في حد من حدود الشرع أفكان عمر هو الذي يشرع الحدود ؟ أو لا تعلم كيف انه أقام الحد على ابنه ؟ أو لم يسمع عمر بما سمعناه نحن.. عندما جاء القوم يستشفعون بأسامة عند رسول الله ﷺ.. في السارقة مما جعله يقول « لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »..

ان مثل هذه الأمور انما يضعها الوضاعون ليقال ان عمر كان يترك الحدود عندما يجد نفسه قد ارتكب خطأً في حق الغير فلماذا لا نتركها نحن.. وكأنما في الحدود مساومة يتصرف فيها الفرد كيف يشاء..

من منهج النبوة

إن من أراد أن يجمع كل آدابه ﷺ أو يتتبع كل مزاياه في هذا الجانب فقد أوقع نفسه فيما يشبه المستحيل وأدخلها فيما قد يستعصى عليها فيمن من الناس يستطيع أن يدرك كمال الأنبياء أو يجمع كل أطراف صفات المعصومين فلنأخذ اذا بما في الإمكان أخذه لنتخلق بأخلاقهم فيه.. فلقد كثرت مواقفه ﷺ في هذا الجانب كثرة لا تعد. لأنه ﷺ كان بعيداً كل البعد عن صفات النقص البشري فلا كذب ولا خداع ولا خيانة.. تحوم ولا مجرد حوامة بساحته ﷺ..

جاءه ذات يوم عثمان بن عفان بعبدالله بن أبي السرح أخيه من الرضاعة وكان عبدالله هذا قد أهدر دمه بمعنى ان الرسول ﷺ أوصى بقتله أينما وجد ولو كان متسلقا بستائر الكعبة وما ذلك الا لفظاعة جرائمه التي ارتكبها في حق الإسلام والمسلمين وتزويره في الكتاب المبين (القرآن

الكريم) فوقف به عثمان مدة طويلة أمام الرسول ﷺ لأن الرسول قد صمت فلم يتحدث معهم.. ثم بعد تلك المدة الطويلة أعطاه الرسول ﷺ الأمان فندم وأسلم على يديه عبدالله بن أبي السرح ثم التفت الرسول ﷺ الى أصحابه وقال « انما صمن.. يعني سكت ليقوم أحدكم بقتله لأنه كان مهدر الدم.. فقال أصحابه صلوات الله عليهم « هلّا أَوْمَأْت إلينا ؟ بمعنى أعطيتنا إشارة ولو بطرفٍ خفي.. فماذا كان موقف الرسول ﷺ من هذه الكلمة « لقد قال لهم ما يصلح درسا وتعليما لهم وللأمة جمعاء.. قال « ان الأنبياء لا تكون لهم خائنة الأعين.. » ولقد عاش عبدالله هذا الى أن أدرك خلافة عثمان وجعله عثمان حاكما على مصر.. فكان نعم الحاكم وكان نعم المجاهد عبدالله.

وواقعة أخرى :

لهبار بن الأسود وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ وعظيم الجرم لأصحابه الكرام وقد عظمت جرائمه من غزوة بدر.. ولقد تعرض للسيدة زينب بنت رسول الله عندما خرجت مهاجرة، فطعنها برمحه حتى وقعت من ناقتها وكانت حاملا فألقت حملها وسقط جنينها وتسبب لها ذلك في مرض ماتت به. فغضب الرسول ﷺ من جرائمه تلك وأهدر دمه كما أهدر دم عبدالله من قبل إلا أن « هباراً » جاءه يوم فتح مكة وهو يقول بأعلى صوته : يا محمد أنا

جئت مقرّاً بالإسلام وقد كنت قبل هذا ضالا والآن قد هداني الله للإسلام وأخذ يردد في الشهادتين ويعتذر اليه معترفا بذنبه مظهرا التأسف والخجل.. فما كان من النبي ﷺ إلا أن قبل إسلامه وعفا عنه.. بل زاد على ذلك بأن طمئنه وهدأ أعصابه قائلا : « يا هبار ان الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله » بمعني ان الإسلام يمسح ما وقع من الإنسان قبل إسلامه.. فأين نحن من سعة هذا الصدر النبوي ؟ وهذا الحلم الكريم والأدب العظيم.

ولما دخل الرسول ﷺ مكة فاتحا منتصرا، وأمكنه الله من رقاب قريش أولئك الذين أخرجوه وأصحابه مرغمين مكرهين من ديارهم وأموالهم قال لهم قولته الشهيرة.. ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا.. وهنا لم ترتخ قلوبهم ولم تطمئن نفوسهم حتى هذه اللحظة.. فأسرع سهيل بن عمرو وهو من رؤساء قريش وقال : يا محمد أنت أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدر علينا فان عذبتنا فبجرم عظيم وان عفوت عنا فبحلم قديم فما كان من الرسول ﷺ الا أن تبسم في وجوههم وقال بل أقول مثل ما قال أخي يوسف عليه السلام : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فاذهبوا فأنتم الطلقاء. ومن هذه اللحظة سمي أهل مكة بالطلقاء يا لها من مواقف ندية ثرة.. يعجز عنها البشر ولو اجتمعوا لها.. وعجز التاريخ أن يخلد أمثالها في أية ملة منذ أن كانت

الملل.. ولما هاجر ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة.. كان آخر من خرج شان القائد مع اتباعه والرائد مع مريديه.. وهو يعلم علم اليقين ان كل مشرك انما يقصده في المقام الأول دون سواه.. وقد ترك عليا كرم الله وجهه ليرد أمانات الناس.. وفيهم من هو عدو لله ولرسوله. وذات يوم وقف في أصحابه يذكرهم بما فيه خلاصة الايمان وزبدة اليقين قائلا : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله.. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » وقف يذكرهم بهذه الكلمات لأنه علم ان صحابيا من أصحابه الكرام هاجر ليتزوج بالمدينة.. دون أن يدري ان في ذلك تنقيص لهجرته ففي بداية الدعوة انما يتلقى الجميع تصحيح سلوكهم وتغيير حياتهم من القائد الأعظم والمعلم الأكبر رسول الله ﷺ فلم يحرج الرسول ﷺ هذا الصحابي الجليل بل شمل حديثه كل الصحابة وجاء خطابه عاما لكل الناس فلم يعلم أحد منهم ان فلانا بذاته هو المقصود بالحديث..

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام في كل موقف من مواقفه لا يجرح ولا يخدش ولا يعيب ولا يفضح أحد أصحابه بين أصحابه.. فأين نحن من هذه الآداب وفي هذا الحديث الشريف لو علم الصانع في مصنعه، والزارع في

مزرعته والتاجر في متجره والعامل في عمله، والموظف في وظيفته والتلميذ في مدرسته « إنما الأعمال بالنيات » لما وجدنا صناعة مزورة، ولا أرضا بائرة، ولا تجارة مغشوشة ولا موظفا عاطلا ولا عاملا خائنا، ولا تلميذا بايرا.. لأن كل فرد منهم سيضع الحديث أمام عينيه وفي اتجاه وجهه.. فيعمل بنية الاخلاص ويتحرك بوازع الضمير..

رجل من أهل الجنة

يتفاوت الناس ويمتازون بقدر ما في قلوبهم من خير.. وبقدر ما في نفوسهم من صفاء واخلاص ولذلك كان الكريم عند الله هو التقي لأنه يتقي شر النار فيعمل وقاية بينه وبينها بأعماله الصالحات وسلوكه الطيب، وسيرته النظيفة وهو في سبيل ذلك يجود بنفسه وماله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم﴾ علماً بأن الانسان الخير هو الانسان الخير.. في أي زمان ومكان..

فالمعدن الطيب لا يتغير، والوراثة الصالحة لا تتبدل مهما أتى عليها من مصائب الزمن ونوائب الدهر ولننظر الى هذا السؤال الذي يوجه الى رسول الله ﷺ ليوضح لهم : من هو أكرم الناس ؟ ثم لننظر بأي شيء أجاب الرسول ﷺ ؟ « فعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه البخاري ومسلم انه قال « قيل يا رسول الله : من أكرم الناس قال أنقاهم، فقالوا ليس عن هذا نسألك، قال فيوسف نبي الله ابن نبي الله بن

خليل الله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فعن معادن العرب تسألوني ؟ خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام اذا فقهوا ».

والرسول ﷺ كان كثيرا ما يدرك الشخص ونواياه بالنظرة الأولى ولذلك كان حدد أحيانا مستواه فيهبه الجائزة بقدر ما يستحق..

فعندما يأتيه رجل يسأل عن الإسلام ثم ينصرف قائلا : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، يقول في حقه الرسول : افلح ان صدق..

ثم يأتيه آخر فاذا به يقول له غير ما قاله للأول.. وهكذا.. فكان بقدر ما أحس فيه الرسول ﷺ، وَعَلِمَ ..

ولننظر هنا الى هذه الشخصية الفذة لهو شخص بسيط في حاله وظاهره، قوي في إيمانه يطلب الجنة رأسا دونما أدنى حياء أو خجل.. لأنه انما يطلبها بعمل لا كسل فيه واخلاص لا نفاق معه.. يطلبها بكل قوة لأنه يريدها ولا يريد سواها ويبشره الرسول ﷺ بها فاظا به يصير علما من أعلام الجنة يمشي بين الناس قبل أن يدخلها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه البخاري ومسلم ان اعرابيا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله دلني على عمل

اذا عملته دخلت الجنة. قال تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان، قال والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا فلما ولّى « يعني ذهب ومشى » قال النبي ﷺ : « من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظرّ الى هذا » وأنه لمن المعلوم بالضرورة ان الرسول ﷺ لم يذكر له (الحج) ضمن ما ذكره له لأن الحج لم يكن قد فرض حتى ذلك الوقت، وهذا ما ينبغي أن يتبع في أكثر الأحاديث التي تذكر شيئا من الواجبات، وتسكت عن أشياء أخرى.. كما انه من المعلوم أيضا انه والحالة هذه أن ينتهي عن ما نهى الله وليس المطلوب منه أن يأتي بهذه الفرائض فقط ثم يعيث في الأرض فسادا، فينتهك الحرمات ويسرق، ويختلس ويقتل ثم يقول انه من أهل الجنة ما لم يفرط في تلك الواجبات المحددة فبشارة الرسول ﷺ انما جاءت لمدى علمه ﷺ بصالحية هذا الرجل وصلاحتيه..

ومن انه لن يأتي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يرتكب المنكرات، والصلاة نفسها وهو قد التزم بها تنهاه عن ذلك كله ﴿**إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾[1] وإنما حرصت على هذا البيان، والتزمت بهذا التوضيح لأن

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥.

عن طريق الخير وينحرفون عن الصراط المستقيم بنفس كثيرا من الناس يضلون عن طريق الهداية، ويذهبون الى الشر الشيء الذي كان من حقه ـــ اذا فهموه وفقهوه أن يهديهم الى الصراط المستقيم.. وذلك كما جاء في التنزيل الحكيم ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ به إلاَّ الفَٰسِقِينَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦.

« تحول امرأة »

كانت هند ابنة عتبة، امرأة أبي سفيان بن حرب، ووالدة معاوية... من أشد نساء زمانها عنفاً وغيرة، عنفاً في الكفر وغيرة في الالحاد والشرك وقد بلغ منها الأمر مبلغا عظيما.. حتى أهدر الرسول ﷺ دمها من بين ست من النسوة بمعنى ان من وجدهن ما عليه الا أن يقتلهن وأما الرجال فقد كانوا عشرة.. وسبب هذا الاهدار لما كان يحصل منهم من شدة الأذى والأفعال الذميمة والمبالغة في الكفر..

ففي « غزوة بدر الكبرى » خرجت « هند » تشجع جيش المشركين، ومعها الفتيات يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين، حتى رد الله كيدهم في نحورهم وكانت الهزيمة الساحقة لجيش المشركين وفي هذه الغزوة كان ابنها حنظلة بن أبي سفيان من ضمن القتلى، مما أوغر كثيراً في نفسها وأثر في صميم أعماقها.

ولما كانت غزوة « أحد » كانت هند من بين الطلائع تشجع بكل ما أوتيت من قوة وتحرّض بكل ما فيها من عنف وشدة تتحرك في ثورة وانفعال مع الجيش في حنق وغضب.. ولما قتل أسد الله حمزة بن عبد المطلب، على يد وحش بن حرب، زغردت الفرحة في أعماق هند فطارت في اتجاه القتيل وسرعان ما بقرت بطنه وفتحته ثم نزعت كبده نزعا وأخرجته وأخذت تلوكه في حنق وغضب وحماقة لعلها تشفي غليلها وتبرد نار أحشائها.. ومعلوم ان المسلمين في أحد نزل بهم فشل عن الانتصار ولم تنزل بهم هزيمة كما يقول كتابنا في هذا العصر قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِنْ بَعْدِ مَا أَرَٰكُمْ مَا تُحِبُّونَ**﴾[1] وكان ذلك كله بسبب المنافقين الذين يزعمون انهم مسلمون وما هم بمسلمين.. ولو كان هزيمة لذكرها القرآن كما ذكر غيرها من الهزائم قال تعالى في طالوت مع جالوت: ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ**﴾[2] والفرق بين الفشل والانتصار والهزيمة كبير للغاية، اذ ان الهزيمة إنكسار كامل للجيش المحارب وليس الحال كذلك في الفشل.

ولنرجع الى هند تلك التي كانت تحتفظ بصنم خاص بها

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥١.

في بيتها تعبده كلما سنحت فرصة للعبادة والواقع انها ما كانت باقل من الصنم في تحجر قلبها وتصلب مزاجها.. فما أشبهها بعمر ـــ مع شيء من الفارق في مراحل حياتها، ونموذج تكوينها.

دخلت هند في الإسلام بعد فترة طويلة من الزمن عن اقتناع وتيقن..

ولما فرغ الرسول ﷺ يوم الفتح ـــ فتح مكة ـــ من بيعة الرجال أخذ بيعة النساء عن طريق عمر وهو جالس أسفل الرسول ﷺ في جبل الصفا، يبايعهن بأمره، فجاءت هند وهي متنكرة حياء من الرسول ﷺ وخشية مما فعلت بعمه حمزة. فقال ﷺ أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً، فقال الرسول ﷺ ولا يسرقن « وهنا لم تستطع هند أن تسكت كعادتها في ابداء كل رأي تحسه أو تشعر به فقالت « ان أبا سفيان رجل شحيح فأن أصبت من ماله هناة « يعني أخذت منه قليلا دون أن يعلم » فقال : أبو سفيان ما أصبت فهو لك حلال، فضحك النبي ﷺ وعرفها وقال لها انك « لهند » قالت نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله، فقال عفا الله عنك ثم قال الرسول ﷺ ولا يزنين « وهنا أيضا لم تسكت هند فهي لا تستطيع أن تكتم ولا خلجة واحدة من خلجات

نفسها » فقالت أتزني الحرة.. « والمراد ان ذلك أمر مستبعد حتى عن طريق الفطرة وكل النساء حرائر في الإسلام الا امرأة أخذت في غزو وهي تقاتل ورأى الحاكم عدم حريتها » وعندما قال الرسول ﷺ ولا يقتلن أولادهن « أيضا لم تسكت هند بل قالت في جرأة المصارحة » وهل تركت لنا ولدا الا قتلته يوم « بدر » فأنتم وهم أعلم ربيناهم صغارا فقتلتهم كبارا، فضحك عمر من قولها وما زال يضحك حتى استلقى « يعني وقع على قفاه » « وتبسم الرسول ﷺ تعجبا من صراحتها ووضوحها ثم قال : ولا يأتين ببهتان يفترينه « وعندئذ قالت هند » والله ان أتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الأخلاق « والبهتان هو الكذب في الشيء الخطير الذي له عواقبه ومصائبه.. »

وعندما قال ولا تعصينَّ في معروف قالت والله ما جلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف. ولما رجعت هند الى منزلها أخذت حديدة صلبة وجعلت تكسر صنمها تكسيرا وهي تقول : كنا منك في غرور، كنا منك في غرور.. وبقيت هند في قوة ايمانها وصلابة يقينها حتى حضرت قتال الروم مع المسلمين يوم « اليرموك » ومعها زوجها أبو سفيان، فكانت كأشد ما تكون النساء تشجيعا لجيش المسلمين وتحريضا لهم على القتال، وذلك مع بقية النسوة اللواتي كن معها فسبحان الله مغير الأحوال من حال الى

حال.. وهكذا ظلت هند طيلة حياتها.. حتى توفيت في خلافة عمر رضي الله عنه..

« الكتابة المترّبة »

للإسلام دور كبير للغاية في بناء الشخصية المثقفة وتكوين المسلم الذي يرفع جهله ثم يتوغل شيئا فشيئا ليبلغ أقصى درجات العلم والمعرفة.. وفي هذا المجال نجد كثيرا من آيات الكتاب المبين وأحاديث الرسول الأمين.

فحينما يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿نَ، وَالقَلَمِ، وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] إنما تتناول هذه الكلمات الثلاث أدوات التعليم كلها.. من أطرافها الى أطرافها فكلمة نون إنما هي الدواء « يعني الدواية » التي بها يكتبون، والقلم شيء معروف ومعلوم فهو الذي به يسطرون وكلمة وما يسطرون إنما هي القرطاس بمعنى « الكراسة » التي عليها يكتبون. أنظر كيف تناولت الآيات الكريمة في سرعة أشبه ما تكون بسرعة البرق أجل وأعظم أدوات العلم والتعلم وركيزة الثقافة والتقدم

---

(١) سورة القلم آية ١.

ومبادئ الحضارة والرقي فلولا الكتابة لما كانت حضارة، ولولاها لما كان تقدم ورقي على وجه هذه الأرض ولا أدرك الإسلام هذا الجانب الأغر وكيف لا يدركه وهو الذي جاءنا به. جعل الرسول ﷺ فدية الأسرى يوم بدر بأن يعلم كل أسير يعرف القراءة والكتابة، عشرة من أبناء المسلمين. وقد كان ذلك في وقت أحوج ما يكون فيه المسلمون الى تنمية اقتصادياتهم الزراعية والصناعية وغيرهما فلم يوجه الرسول ﷺ أحداً منهم الى زراعة أو صناعة أو بناية.. وما ذلك الا لعلمه ﷺ بأن كل واحدة من هذه الأمور أو غيرها انما تحتاج الى العلم ولا تكون على أصالتها الا بالعلم..

ولقد حرص الرسول ﷺ على تعليم المسلمين أي نوع مفيد من أنواع العلم أيما حرص، ولذلك نجده في السنة السادسة من الهجرة المباركة يامر زيد بن ثابت بأن يتعلم اللغة السريانية فتعلمها، وكذلك كان يرسل الرسول ﷺ من أصحابه ليتعلموا صنعة « الدبابات » وغيرها من آلات الحرب والقتال.. ومن هذه النبذة القصيرة يظهر لنا في وضوح ان العلم والتعلم شيء أساس في الإسلام وقد أصبح أمراً طبيعيا لدى المسلمين على مر العصور والأجيال ففتحت الكتاتيب وأنشئت الخلاوي في كل زمان ومكان يقرأون فيها القرآن ويتعلمون فيها مبادئ القراءة والكتابة وأعجب ما في ذلك انهم لا يزالون يتقيدون بكثير من الأمور الدقيقة

الصادرة من الرسول ﷺ فنجد شيخ الخلوة مثلا وكذلك « الحيران » عندما يكتبون ألواحهم أو يكتب الشيخ قرطاسا له.. بالدواية فيذر عليه حفنة من التراب أو يرميه عليه فيتربه. ثم ينفض التراب عنه.. تماما كما كان يفعل الرسول ﷺ..

فلقد روى أبو سفيان بن حرب ان رسول الله ﷺ لما كتب كتابه إلى النجاشي ختمه ثم رمى به على التراب وأنفذه فنجح وأسلم التجاشي ولما كتب كتابه الى كسرى لم يتربه فلم ينجح فكان ذلك تفاؤلاً بنجاح الكتاب المترب » هكذا..

فلقد ورد عنه ﷺ انه قال : تربوا الكتاب فان التراب مبارك وأخذ من هذا القول بعض الشعراء فنظم فيه شعرا يقول قائلهم :

كتبت الكتاب وتربته لعلي بتتريبه أفلح
لقول النبي لأصحابه الا تربوا كتبكم تفلحوا

أما الآن ــ فأيها القارئ الكريم ــ فان النشافة قد استبدلت بالتراب لدى الكتاب وهو أمر لا يأباه الإسلام بل يدعو اليه لأنه يدعو للتطور والتقدم والرقى. فالمسلمون أدرى بشؤون دنياهم على حد تعبيره ﷺ : « أنتم أدرى بشؤون دنياكم » علما بأن الدنيا لا تنفك عن الدين ولا

تنفصل عنه بحال من الأحوال لأن الدين في الإسلام هو الذي يسيرها.

ولقد تطورت أداة الكتابة أكثر فأكثر حتى شهدنا أقلاما لا تتسرب دواتها على الأوراق قط وهي بالتالي لا تحتاج الى « تراب » ولا الى « نشافة » تجفف السائل منها أو توقف من تسربه..

« صلاة من لا يقرأْ »

لقد فرض الله عز وجل ليلة المعراج خمس صلوات يؤديها المصلي في ليله ونهاره وهي أول عبادة فرضها الله، وكانت قبل هجرته ﷺ من مكة الى المدينة.

أما الزكاة، والصوم، والحج.. انما فرضت بعد الصلاة وجاءت الآيات في فريضتها لتقول في أمر وإلزام ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ، وَٱصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجرَ ٱلمُحْسِنِينَ﴾[١]

ولو علمنا هذا.. فلنعلم أيضا ان الصلاة كانت هي آخر ما كان يردده ﷺ وهو في فراش موته، فكان يقول : الصلاة.. الصلاة وما ملكت ايمانكم ».

(١) سورة : هود في الآية ١١٤ ــ ١١٥.

أما كيفية الصلاة فهي.. أن يحضر المصلي بينه وبين نفسه بنية الصلاة المعنية ظهرا كانت أم عصراً أو غيرهما.. ثم يكبر بتكبيرة الإحرام من قام يعني وهو قائم منتصب ثم يقرأ الفاتحة من قيامه على سبيل الوجوب والإلزام، وسورة أو آية على سبيل السنة ثم يقرأ، ويرفع ويسجد ويرفع ثم يجلس الجلسة الأخيرة على سبيل الوجوب بقدر ما يتلفظ بكلمة السّلام عليكم ويجلس في وسط الركعات على سبيل السنة وأن يكون سلامه للخروج من الصلاة كما ذكرنا.. ولا يصح له أن يقول أي لفظ آخر ومن الواجب أيضا أن يأخذ المصلي لحظة صبر في قيامه، وركوعه، وسجوده، وأن يكون معتدلا في جميع حركات جسمه. وهو ما يسمى بالطمأنينة، والاعتدال.. اللهم إلا اذا كان ظهره مقوسا فيعتبر اعتداله في هذه الحالة هو تقوسه.

وهكذا يقوم المصلي بحركاته تلك حتى نهاية الصلاة كلها.

فتلك هي حركات المصلي باختصار. وقد علمنا كيف ان قراءة الفاتحة من لوازم الصلاة وشروط صحتها لم يختلف فيها مجتهد أو يغير من موقفه فيها عالم واذا كان الأمر كذلك فما موقف الإسلام ممن أسلم جديداً ودخل الإسلام حديثاً سواء كان مسيحيا أم مجوسيا أم يهوديا أو غير ذلك من مِلَلِ العالم وَنِحَلِهِ وقد يحدث ذلك يوميا على

وجه التقريب انه لا بد له من أن يصلي بمجرد دخوله في الإسلام لكن كيف يقرأُ.. وهو الذي لم يحفظ شيئا من القرآن، أفتكون صلاته صحيحة دون قراءة أم لا ؟

لقد أتى الى الرسول ﷺ ذات يوم رجل لا يعرف الصلاة ولعله دخل حديثا في الإسلام، فأخذ رسول الله ﷺ يعلمه متدرجا معه شيئا فشيئا.. وأجمل كلماته في بساطة الدين ويسره وسماحة تعاليمه وفهمه حتى يأخذ بما يستطيع الى أن يصل الى ما لا يستطيع بمرور الزمن وحرصه في التعليم.. فلقد ذكر الحطابيْ من حديث رفاعة بن رافع : ان النبي ﷺ علم رجلاً الصلاة فقال « ان كان معك قرآن فاقرأ وإلا فاحمده، وكبره وهلله ثم اركع » رواه أبو داود والنسائي والترمذي والبيهقي وقد حسن هذا الحديث الترمذي والمراد بأحمده، وكبره، وهلله، هو أن يقول في صلاته الحمد لله والله أكبر ولا إله إلّا الله ويكرر فيها واقفا بمسافة القراءة ثم يركع وهكذا الى نهاية صلاته وهكذا تكون صلاته حتى يحفظ الفاتحة وغيرها. وبعد حفظه لها تلزمه الصلاة بها.. ولا ينبغي له أن يعطل صلاته حتى يحفظها.

أما صلاة الأبكم الذي لا يعرف الكلام.. فان كان قد حفظ شيئا فعليه أن يحرك لسانه بما حفظ، وان لم يستطع

أن يحرك لسانه فعليه أن يوسوس به في نفسه.. لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل في الدين من حرج ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[1] و﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا**﴾[2] وعلى هؤلاء وأمثالهم أن يلتزموا بصلاة الجماعة بقدر المستطاع حتى ينالوا درجات ثوابها، ويتعلموا الصلاة والقراءة منها.

---

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦.

« مأساة القرّاء »

كان المسلمون جراحات بعضهم لم تشف بعد.. وكانت نفوسهم لم تهدأ حتى وقع ذلك الحدث المشؤوم.. فهم لم ينتهوا من غزوة « أُحُد » إلا قبل أربعة أشهر فقط، وكلنا يعلم ما حدث في « أُحُد » حيث كان الفشل بسبب المنافقين عن الانتصار ــ لا الهزيمة ــ كما يقول البعض وفرق بينهما كبير.. وبينما المسلمون في تلك الحالة.. إذ دخل رجل غريب عن الإسلام غير انه معروف لدى الناس يقال له / أبو البراء بن مالك العامري، ويلقب / بملاعب الأسنة. دخل الى رسول الله ﷺ فلما رآه ﷺ عرض عليه الإسلام لعله يسلم إلا انه خرج من بين يديه ولم يسلم.. فلم يوفقه الله للهداية.. ﴿**مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً**﴾[1] غير أن أبا البراء هذا

---

(١) سورة الكهف في الآية ١٧

مع انه لم يسلم بعد إلا أنه لم يبعد عن المسلمين ويتركهم وشأنهم فأخذ يتمسكن ويتلطف معهم حتى قابل الرسول ﷺ ذات مرة وقال له : يا محمد إني أرى أمرك هذا حسنا شريفا وقومي خلفي فلو انك بعثت معي نفرا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك فانهم ان اتبعوك فما أعز أمرك ؟

ويحكي بعض المؤرخين أنه إنما قال للرسول ﷺ يا محمد : «لو بعثت نفرا من أصحابك الى أهل نجد فدعوتهم الى أمرك لرجوت أن يجيبوه » وكلا الروايتين لا تبعد عن بعضهما كثيرا.. فماذا كان جواب الرسول ﷺ ؟ لهذا المخادع الذي كان يرجو منه أن يدخل الايمان في قلبه وأن يسع الإسلام صدره.

قال له : إني أخشى أهل « نجد » عليهم. قال أبو البراء : أنا لهم جار، بمعنى انهم سيكونون في ذمتي وعهدي وجواري فلم يمسهم سوء ولم تصلهم يد مجرم فبعث الرسول ﷺ البطل الإسلامي الشهيد / المنذر بن عمرو، على رأس سبعين صحابي من القراء.. فسار بهم المنذر حتى نزلوا في مكان يقال له « بئر معونة » وهنا حدث ما لم يحمد عقباه، حيث ظهر فجأة شخص يسمى « عامر بن الطفيل » وهو من المشركين أخذ ينادي بأعلى صوته قبائل بني سليم ورعلا وغيرهما من القبائل التي تسكن تلك

المنطقة.. ينادي فيهم بالهجوم على هؤلاء المسالمين، الذين تكبدوا مشاق السفر وأتعابه ليسمعوهم آيات الله، ويعلموهم ما أنزل الله على رسول الله ﷺ فكان جزاؤهم الهجوم الغادر عليهم واستعمال السيوف في رقابهم وهم لا يزالون في رحالهم التي جاؤوا بها قاطعين المسافات الطويلة..

ولما شاهد القرّاء هذه الحالة الغريبة التي استضافهم بها أهل هذه المنطقة ورؤوهم وقد سلوا سيوفهم متجهين اليهم في ثورة عارمة وحماقة مجنونة لا تعرف العقل ولا تضع وزناً للمفاهمة.. سل المسلمون أيضا سيوفهم وأخذوا يقاتلون ويقاتلون.. قتالا لا هوادة فيه.. حتى قتلوا في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله.. ولم ينج من الموت منهم سوى شخصين من واحد وسبعين شخصا وهما كعب بن زيد وعمرو بن أمية الضمري. وقد استشهد مع الشهداء بطلهم القائد / المنذر بن عمرو الخزرجي » فرضي الله عنهم جميعاً، فلقد كانوا كما يقول القرآن الذي كانوا يحملونه لهؤلاء المشركين ﴿**فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَحْبَه وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبدِيلاً**﴾[1].

ولما جاء الخبر الى رسول الله ﷺ وهو الذي ما كان يدري من أمرهم شيئا لأنه ما كان يعلم الغيب، وإلا لما

---

(١) سورة الأحزاب في الآية ٢٣

جعلهم يخرجون منذ البداية ﴿لَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1] وإنما يعطيه الله من الغيب أحيانا على سبيل الاعجاز، بمعنى أن يكون ما أعطاه الله من الغيب معجزة له. لما جاء الخبر اليه قال: هذا سببه عمل أبي البراء، «قد كنت كارها متخوفا» ولما بلغ أبو البراء ما قاله الرسول ﷺ في حقه أخذ يخاف ويجزع ويأسف حتى مات من شدة خوفه وأسفه..

وأغرب ما في الأمر ان بعض المؤرخين يقولون ان أبا البراء كان قد أسلم وان ما حصل بسببه إنما كان دون قصد منه ولا علم.. وفي هذا الحديث العجيب يوضح لنا الصحابي الجليل أنس بن مالك مدى تأثر الرسول ﷺ وأسفه، وحزنه على هؤلاء فيقول: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجده على أهل «بئر معونة» والمراد أنه صلى الله عليه لم يحزن ولم يأسف على أحد مثل ما حزن وأسف على هؤلاء.. ولقد بقي الرسول ﷺ يدعو على من قتلهم ثلاثين صباحاً..

والواقع الذي لا جدال فيه اننا لو علمنا كم كان يكون هؤلاء السبعون؟ في قلة عدد المسلمين آنذاك، لوضع الفرد منا يديه على رأسه من هول المصيبة، ولأخذ يعض من الغيظ

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨.

أنامله.. ألا رحم الله هؤلاء الشهداء، وجعلهم أسوة لمن بعدهم من القرّاء، ومثلا لا ينفد لمواقف النبلاء.

« غدر وثبات »

كثيراً ما لقي المسلمون الأوائل من مصائب المشركين وأتعابهم ومن غدر المنافقين وخياناتهم فكانوا دائماً يقفون لهم بالمرصاد، وما من فرصة تواتيهم الا وينتهزونها وفي كل مرة يكيدون المكايد بطرق مختلفة وأساليب متنوعة..

ولننظر هنا كيف كان غدر النفاق « وكيف ظل ثبات الإيمان والواقع ان هذا الحدث العجيب أيضا كان حدوثه بعد غزوة « أُحُد » كالحدث الذي مضى « في مأساة القراء » وكأنما أراد المشركون والمنافقون أن لا يعطوا ثغرة للمسلمين ينفذون منها.. بعد « أُحُد » وكأنما أرادوا أيضا أن تكون ضرباتهم متلاحقة بكل قواهم وبكل وسائل اجرامهم..

لقد قدم الى رسول الله ﷺ بعد غزوة « أُحُد » قوم من قبيلة عضل وقبيلة القارة وهما قبيلتان عربيتان ينتسبون الى بني

الهون (بن خزيمة بن مدركة).. فجاؤوا الى رسول الله ﷺ في صفه المسلمين وفي وداعة وأمان يقولون بكل لين وعطف : يا رسول الله ان فينا إسلاما فابعث معنا أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام » هكذا في هذه المرة يريدون أن تأتي النكبة بخلاصة علماء المسلمين لا قرائهم فحسب.. فهم يزعمون انهم مسلمون وما هم بمسلمين.. يطلبون من الرسول ﷺ أن يرسل معهم فقهاء يعلمونهم الدين ويفقهونهم شرائع الإسلام..

فما كان من الرسول ﷺ إلا أن أرسل معهم ستة من أصحابه الكرام وهم نخبة متفهمة لأمور دينها عالمة بشرائع الإسلام وجعل الرسول ﷺ من بين هؤلاء الستة / عاصم ابن ثابت الأنصاري أميراً عليهم وهو من السابقين في الدخول الى الإسلام. فخرجوا مع القوم الذين جاؤوا يطلبونهم حتى أتوا الى مكان يقال له « الرجيع » وهو مكان يوجد فيه الماء ويقع ما بين مكة وعسفان. أتوا الى هذا المكان وقد بلغ منهم الجهد ونال منهم التعب.. وكلنا يعلم مشقة السفر بالدواب ويدرك أتعابه.. وبينما هم كذلك.. حتى سمعوا أصواتا مدوية وصراخا يجلجل أنحاء السماء وأطراف الأرض فيلتفتون فاذا بالصراخ والأصوات انما تنبعث من رفقائهم الذين ساروا معهم طيلة هذه المسافة وكأنهم مسلمون، وأخذوا ينادون على قبيلة هذيل ليعينوهم

على استضافة هؤلاء بالقتل والسحق، وإنما طلبوا هذه المعونة من قبيلة هذيل بالذات لأن المسلمين كانوا قد قتلوا : سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي في غزوة « أُحُد ».

وفرق لا يقارن ـــ أيها القارئ الكريم ـــ بين حرب صريحة معلنة وبين غدر خفي جبان.. وما التفت المسلمون إلا والرجال بأيديهم السيوف فأخذ عاصم ومن معه سيوفهم استعدادا للقتال، فقال أهل الغدر والخيانة : أنا والله لا نريد قتلكم ولكم عهد وميثاق على إننا لا نقتلكم. أنظر أخي القارئ كيف انهم لا يزالون يحلفون بالله كذبا.. فأبى المسلمون أن يقبلوا منهم ذلك ونزل فيهم عاصم وخالد ومرثد كالصاعقة يحصدونهم حصدا ويرمون بجثثهم كما ترمى الجيف حتى استشهد ثلاثتهم، واستحسن الثلاثة الباقون وهم خبيب بن عدى وزيد وعبدالله بن طارق استحسنوا أن ينزلوا على العهد والميثاق. فما لهم لا يجربون وان كانوا يعلمون مسبقاً انه لا عهد لمنافق ولا ميثاق لمشرك.. وسرعان ما ظهر الواقع كما كانوا يعتقدون. فلقد قتلوا من بين هؤلاء الثلاثة / عبدالله بن طارق وأخذوا زيدا وخبيب الى مكة فباعوهما هناك.. وهنا يظهر موقف آخر لهؤلاء الأبطال.. موقف ثبات لا يعادله ثبات، وايمان لعله لو وزن بإيمان أهل الأرض لرجح به.

فلقد تلاقى زيد، وخبيب وهما في الطريق، وتواصوا

بالصبر، والثبات على ما يلحقهما من مكاره ومصائب نعم إنها وصية المسلمين أهل الحق والإيمان ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[1] أما أهل مكة فقد كانوا يريدون الانتقام منهما ومن أمثالهما منذ زمن بعيد، وها هم اليوم بين أيديهم فأخذوا يعذبونهم بألوان العذاب.. ثم اتفقوا على قتلهما « صبرا » يعني جوعا وعطشا وتعذيبا ولكنهم.. وبعد مدة من الزمن أتوا « بخبيب » الصابر المحتسب ليقتلوه وكأنهم لا يطيقون الصبر على هؤلاء وان كانوا في بيوتهم آمنين.. وهؤلاء في سجونهم يعذبون.. انهم ينزعجون من مواجهتهم وهم على قيد الحياة.. فلقد أُحضروه ليقتلوه.. فقال لهم : دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين ثم التفت اليهم وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ذلك من الجزع يعني الخوف لزدت يعني على الركعتين.. ثم أخذ يدعو الله عليهم قائلا : الهم احصهم عددا واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا..

ثم أنشد كلمته الخالدة خلود الدهر والتي نجدها حتى يومنا هذا على لسان كل صغير وكبير.. أنشد قائلاً :

---

(١) سورة العصر آية ٣.

فلست أُبالـي حيـــن أقتـــل مسلمـــا
على أي جنب كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإلـــــــه وان يشأ
يبـــارك علـــى أوصال ثلـــو ممـــزع
الـى الله أشكـو غربتـي بعـد كربتـــي
وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعـي

وهنا يقول أبو هريرة رضي الله عنه أنه يعني « خبيب » أول من سن الركعتين عند القتل لكل مسلم قتل صبرا، لأنه فعله في حياته ﷺ فاستحسن ذلك لما بلغه واستحسنه المسلمون كذلك..

« إسلام .. ملك »

كان الناس في جاهلية عمياء.. يتعايشون بمادية صمَّاء.. نشفت عقولهم وجففت قلوبهم.. فأخذ ينسف بعضهم بعضاً.. وكانوا في قاع الحياة كالحوت في قاع البحر يأكل قويهم الضعيف.. كان شعارهم : أنصر أخاك ظالما أو مظلوما..

كما كانت قاعدتهم في الحياة أشبه بقاعدة الوحوش في أحراشها وغاباتها فعبر عنها بعضهم قائلاً :

اذا الشر أبـــدى ناجذيـه لهـــم
طاروا اليـــه زرافـــات ووحدانـــا
لا يسألـون أخاهــم حيــن يندبهــم
في النائبــات علــى ما قال برهانــا ·

فهم ينصرون ويقاتلون مع أخيهم سواء أكان ظالما أو

مظلوما، لأنهم أهل شر لا خير فيه وأصحاب جاهلية لا عقل معها. وبينما الناس كذلك في الجزيرة العربية فاذا بملك من عظماء ملوك الأرض آنذاك.. يمتاز برجاحة العقل واستعماله.. ويقظة الضمير وحيويته وفطنة القلب وعبقريته.. ذلكم هو « النجاشي » ملك الحبشة والذي كان يسمى بـ « أصحمة »..

ولما جاء الإسلام أمر الرسول ﷺ أصحابه القادرين على الهجرة وليست لهم عشيرة تحميهم من أذى المشركين أو قبيلة تدافع عنهم.. أمرهم بأن يذهبوا الى الحبشة مبينا لهم أن فيها ملكا عادلا لا يظلم عنده أحد.. فأصبحوا يهاجرون اليها حتى بلغ عددهم ثلاثة وثمانون رجلا غير النساء والصغار من ولد بها.. وكان ممن هاجر اليها جعفر ابن أبي طالب، ولما رأت قريش هذه الحالة غضبت غضباً شديدا وتجمعت لعمل شيء له أثره فأرسلت في طلب هؤلاء الغادرين بدينهم وبعثت الى النجاشي / عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأعطوهم من الهدايا ما يستميلون به قلب النجاشي حسب ظنهم.. وهنالك طلبا من النجاشي أن يسلمهم المهاجرين.. فماذا كان موقفه ؟

انه أخذ بهديتهم وردها اليهم ورفض أن يستجيب لما طلبوه.. فغضب الشخصان غضبا شديدا وأرادوا أن يدبروا

حيلة أخرى.. فقال عمرو للنجاشي أسألهم ماذا يقولون عن عيسى ؟ لعلمهم ان الملك مسيحي الديانة.. فقال المهاجرون ما قاله الله في كتابه الكريم من أن عيسى انما هو : كلمة الله ألقاها الى مريم فاستحسن ذلك النجاشي وأمنهم في جواره.. ورجع رسولا قريش خائبين بخفي حنين..

ثم مرت الأيام تِلوَ الأيام والمسلمون في أمن وسلام لا يقربهم أحد بسوء.. حتى بعث رسول الله ﷺ الى جعفر ابن أبي طالب في خصومة الرهبان والقسيسين ﴿**يَأَهْلَ الكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾[1] فقرأها جعفر بن أبي طالب عليهم عند النجاشي فلما بلغ قوله ﴿**مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِياً**﴾[2].. قال النجاشي صدقوا ما كانت اليهودية والنصرانية إلا من بعده ثم قرأ جعفر ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**﴾[3].. فقال: النجاشي اللهم اني ولي الأولياء ابراهيم وقال صدقوا والمسيح. ثم أسلم النجاشي وأسلم معه أتباعه.. تلك هي حادثة اسلامه كما أوضح ذلك الإمام الزركشي في كتابه الرهبان.. وقد رأينا كيف انها كانت من خلال آيات حملت في الهجرة الى الحبشة.. ففتح الله بها صدر هذا الملك وعقله فاذا به يصبح صحابيا

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤.

(٢) سورة آل عمران آية ٦٧.

(٣) سورة آل عمران آية ٦٨.

من أصحاب الرسول ﷺ لأن الصحابي هو كل من أسلم في وجود رسول الله ﷺ وإن لم يره لسبب أو لآخر.. كعبدالله بن مكتوم الأعمى مثلا..

ولقد أصبح النجاشي يدافع بكل قوة عن دين الحق، وينشر دعوة الإسلام بكل ما أوتي من ايمان فكانت له مواقفه الكثيرة المشرفة.

وعندما أراد الرسول ﷺ أن يتزوج بأم حبيبة « أرملة » بنت أبي سفيان كان النجاشي هو الذي خطبها له وأعطاه الصداق وهو مبلغ أربعمائة درهم.. وقد تولى العقد خالد بن سعيد وهو من المهاجرين الى الحبشة..

وبينما كانت الأمور تسير في مجاريها.. فاذا بيوم حزين يفاجئ قلوب.. المسلمين.. لقد جاء الخبر الى رسول الله ﷺ بوفاة هذا الملك العظيم.. فبكت عليه النفوس كثيراً بما تألمت من هول المصيبة وشدة الكارثة فماذا يا ترى فعل الرسول ﷺ أزاء هذه الفاجعة ؟ ان كل ما فعله الرسول ﷺ هو ان أقام على روحه : صلاة الغائب التي أصبحت سنة مرغوبة عند كثير من المجتهدين فلم يذبح له الرسول ذبائح أو ينصب له خيما أو يوزع على الناس مشروبا وإنما أعطاه ما ينفعه في أُخراه من دعوات صالحات اشتملت عليها صلاة الغائب.

« الآذان »

ان كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها يعلم ان الآذان هو إعلان وإعلام بدخول وقت الصلاة.. ويكون الآذان بألفاظ مخصوصة لدعوة الناس الى صلاة الجماعة، والآذان شعيرة من شعائر الإسلام وهو أشبه بشعار الْعَلَمِ للدولة مثلا، ومع انه سنة مؤكدة في كل مسجد أو جماعة تطلب غيرها للصلاة إلا وان الناس يقاتلون عليه اذا تركوه بالمرة لأنهم في هذه الحالة كأنهم يرمون بشعائر الدولة وعلم إيمانها.. ولما كان الآذان اعلاما « بدخول الوقت فحرام على المؤذّن أن يؤذن قبل الدخول.. كما انه يكون قد ارتكب مكروها إن أذّن بعد دخول الوقت بزمن طويل..

ويتضمن الآذان أيها القارئ الكريم أصول العقيدة الإسلامية كما يشتمل على معالمها الواضحة.. فكلمة الله أكبر اعتراف واقرار بوجود الله وكماله، واشهد ان لا إله إلا الله، اثبات لتوحيد الله ونفي الشرك، وأشهد أن محمدا

رسول الله اقرار واعتراف باثبات الرسالة لمحمد بن عبدالله، وبعد ذلك يأتي النداء الى الطاعة المخصوصة، الى الصلاة بقوله : حيى على الصلاة، ثم ينادي الى الفلاح وهو : أن يبقى المسلم في طاعه دائمة لله.. وبعد أن تعاد تلك الكلمة الجليلة مرتين على سبيل التأكيد والتثبيت يأتي مسك الختام في إعلان جمهوري صريح باثبات التوحيد الخالص لله وحده بقوله : « لا إله إلا الله » هذا هو ما يتضمنه الآذان باختصار ».

ولقد شرع الآذان في العام الأول من الهجرة المباركة والمعنى انه شرع بالمدينة المنورة ولبداية تشريعه موقف طريف وظريف.. فلقد كان المسلمون قبل مشروعية الآذان يتحينون فرض الصلاة ويتوقعون دخول الوقت دون مناداة من أحد فيتجمعون إلى صلاتهم، ولا يخفى عليك ــ أيها القارئ الكريم ــ ما في هذا الأمر من مشقة للنفس وانشغال للخاطر. ولذلك نجدهم ذات مرة قد اجتمعوا يتشاورون فيما بينهم فقال بعضهم من الأفضل أن نتخذ « ناقوسا » كما يعمله النصارى فيضربون الجرس عند كل صلاة، وقال آخرون بل الأحسن أن نعمل « بوقا » بقرن من القرون كما كان اليهود يفعلون.. واشتد النقاش فيما بينهم وتضاربت الآراء.. فأسكتهم عمر بقوله : من الخير لنا أن نبعث برجل ينادي بالصلاة عند دخول كل وقت من أوقاتها

فنجتمع ونصلّي وبينما هم في هذه الحيرة إذ جاء أحدهم ذات يوم فقص عليهم ما سمعه في منامه وبينما هم يستمعون اليه فاذا بعمر يدخل عليهم وهو يحمل نفس البشرى من رؤية أخرى رآها بنفسه وكانت رؤيته موافقة في تفاصيلها لرؤية ذلك الصحابي فأقرهما الرسول ﷺ ووافق على رؤيتيهما فكان الآذان الذي نسمعه الى يومنا هذا.

والواقع ان مثل هذا قد يحدث أحيانا في بعض الناس.. فلقد شاهدت ذات ليلة رؤية طويلة شاهدها معي بحذافيرها وبكل ما فيها في نفس الليلة صديق كان يسكن معي يقال له « محمود عبد العظيم » يعمل أستاذا الآن بثانوية بورتسولنان.

هذا وللآذان فضائل كثيرة ومآثر عظيمة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه البخاري ان رسول الله ﷺ قال لو يعلم الناس ما في الآذان والصف الأول ثم لم يجدوا الا أن يستهموا عليه لاستهموا » والمعنى ان المسلمين لو علموا ما في الآذان والصف الأول في الصلاة من الفضائل والمكارم والثواب ولم يجدوا في الحصول عليهما طريقا الا طريقة القرعة « لأصروا على القرعة » وما فرط أحدهم في هذا الاجر والثواب.. ويقول الرسول ﷺ « اذا سمعتم الآذان — فقولوا مثل ما يقول المؤذن » يقول ذلك في حديث

متفق عليه حتى تكون مع المؤذن خطوة بخطوة لا تتلهى عنه ولا تنشغل لتدرك ما يقوله وتتفحص في معانيه ومن النوادر الملفتة ان بعض المذاهب الصحيحة كأبي حنيفة يجيزون آذان المرأة والخنثي الشكل، والكافر، والمجنون، والسكران[1]، ويقولون اذا حصل الآذان من أحدهم يرفع الاثم عن أهل الحي والمنطقة التي أذن فيها أحدهم..

ولقد أوذي الآذان كثيرا من أهل الشرك وضعاف الايمان في الزمن الماضي حيث كانوا لا يطيقون سماعه.. فهذا يوم الفتح عندما أكرم الله نَبِيَّهُ بالدخول في مكة.. وتحضرهم صلاة الظهر فيصعد بلال على ظهر الكعبة فيؤذن فتسمعه جويرية بنت أبي جهل فتقول « لقد أكرم الله أبي حيث لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة.. ويقول الحارث بن هشام ليتني مت قبل هذا : كما يقول خالد بن أسيد لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم.. فخرج عليهم رسول الله ﷺ ثم ذكر اليهم ما قالوه.. فقال الحارث بن هشام : أشهد أنك رسول الله، والله يا رسول الله ما اطلع على هذا أحد حتى نقول أنه قد أخبرك..

وبينما نجد هؤلاء واولئك على حالتهم تلك نجد أناسا

---

(١) أما من جهة الحدود فيقام عليه الحد، والحديث هنا انما هو فيمن يجوز منه الآذان، ويلاحظ في المرأة ان لا تثير فتنة وفي الكافر أن لا يكون كيداً.

آخرين يستشهدون في سبيل الآذان. فهذا عروة بن مسعود سيد الطائف، لما أفرج الرسول ﷺ عن أهل الطائف وارتحل الى المدينة تبعه عروة هذا وحصله في الطريق وأسلم على يديه ثم رجع يدعو قومه الى الإسلام وذات مرة صعد في رأس منزله يؤذن للصلاة فرماه أحد المشركين بسهم فأرداه قتيلا إلا أنه قبل أن يموت منع قومه من المطلب بدمه وعفاه وقال : هي شهادة ساقها الله إلي وأوصى أن يدفن مع شهداء المسلمين.. وهكذا ــ أيها القارئ الكريم ــ نجد للآذان جوانب عظيمة للغاية، كما نجده رباطا وثيقا عبر العصور والأجيال في كل زمان ومكان..

« إخلاص إمرأة »

إنها « أم حكيم » بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة ابن أبي جهل، ويكون عكرمه بالنسبة لها ابن عمها.. أسلمت أم حكيم يوم الفتح « يعني فتح مكة » أما زوجها عكرمة فولّى هاربا من خشية المسلمين الى اليمن.. فما كان من أم حكيم زوجته إلا أن جهزت نفسها وخرجت في طلبه لترده الى ساحة الإيمان فكان لها ما أرادت.. فلقد حصلته في الطريق واستطاعت أن تقنعه وترده واستأمنته لدى رسول الله ﷺ فكان في أمان حتى أسلم عنده وهكذا كان إسلامها سببا في إسلامه، وكان إخلاصها له هو الداعي لذلك كله فأرادت أن تنجي زوجها كما نجاها الله.

وعندما أسلم عكرمة أقرهما الرسول ﷺ على زواجهما فثبتا على نكاحهما السابق، وعليه فان أسلم أمريكي أو أسلمت روسية ثم تبعتهما في ذلك الزوجة أو الزوج فانهما

يثبتان على نكاحهما الأول.. كما كانت حادثة أم حكيم، وعكرمة[1].

ولقد استقبل الرسول ﷺ عكرمة حين أتت به أم حكيم استقبالا رائعا فلم يشنع بشروده أو يعاتبه في هروبه، بل انه ﷺ قد بدل ذلك الشرود والهروب تبديلا فاذا بالسيئة تنقلب حسنة فقال وهو يستقبله بشرا وسرورا : مرحبا بالراكب المهاجر » ثم أوصى أصحابه الكرام قائلا : أن عكرمة ليأتيكم فاذا رأيتموه فلا تسبوا أباه فان سب الميت يؤذى الحي وهكذا كان ﷺ شديد المحافظة على أصحابه قوي الحرص على أتباعه لا يريد أن يصل اليهم أدنى أذى يؤذيهم أو يؤذي أحدهم..

والواقع أنه لا عجب في ذلك فهو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما قال فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿**ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[2].

إن موقف أم حكيم هذا ينبغي أن يكون هو موقف كل امرأة من زوجها تناصحه، وتناقشه، وترده.. ان وقع منه خطأ أو شذوذ.. كما انه ينبغي أن يكون موقف كل زوج من

---

(١) وقد وقع أيضاً ما يماثله.

(٢) سورة الأحزاب في الآية ٦.

زوجته يناصحها ويناقشها ويردها ان حصل منها خطأ أو شذوذ.. وبذلك تصير الأمة متكاتفة متعاونة في طريق الخير لا يضرها من ضل أو انحرف من غيرها مهما كان ضلاله أو انحرافه وهذا هو مصداق قوله تعالى في المؤمنين المتناصحين المتكاتفين بالنسبة لغير المؤمنين: ﴿يأيُّها الَّذينَ ءَامَنوا عَلَيْكُم أَنفُسَكُم لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُمْ﴾[1] فلقد كانت أم حكيم بحق حكيمة في تصرفها مما أدى الى انقاذ زوجها من هلاك بين وادخاله في حظيرة المسلمين، مما جعله في فترة وجيزة بطلا من أبطاله الخالدين..

كما ان موقف الرسول ﷺ من استقبال عكرمة بتلك الروح المسامحة الكريمة يعطينا درسا عظيما له مغزاه، يعطينا درسا في أن نستقبل التائبين المعتذرين بما يناسب روح التوبة والاعتذار، وإلا فقد نكون قساة في قلوبنا خربين في ضمائرنا ونفوسنا الأمر الذي لا يجمع بل يفرق ولا يوحد بل يشتت ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

وليس معنى هذا أن لا يغضب الانسان أو يثور في حق مهضوم أو ظلم وقع عليه.. فكما ان قبول العذر أمر

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٥.

(٢) سورة آل عمران في الآية ١٥٩.

مطلوب، فكذلك الغضب في الحق أمر مرغوب فيه : وما أصدق قول القائل الحكيم : من استرضى فلم يرض فهو جبار، ومن استغضب فلم يغضب فهو حمار فكلي الأمرين طبيعة في الانسان وفطرة من فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله..

« نموذجان من الرجال »

إنه لمن المعلوم ضرورة أنه ليس كل الناس على حد سواء فما يتحمله هذا ربما لا يتحمله الآخر، وما في قوة فلان ربما لا يكون في قوة علان.. وهذه الحالة أو تلك ربما تكون في الجسم أو النفس أو العقل أوفيهم جميعا. اذاً فالناس ليسوا سواسي كأسنان المشط.. إلا من حيث الانسانية التي توجب العدالة وتقتضي الأنصاف فتأخذ بيد المظلوم وتضرب على يد الظالم. وهي التي أشار اليها سيد الخلق بقوله : كلكم لآدم، وآدم خلق من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى..

ونحن هنا أيضا نجد التفاضل بين الناس بالتقوى.. يعني بقدر ما يكون الإنسان ايجابيا في حياته صالحا في نفسه، مصلحا لغيره مراقبا لله في جميع تصرفاته فالتفاضل اذا وعدم المساواة موجود في جميع أحوال الناس وراسخ في فطرتهم وكامن في طبيعتهم.. فليسوا سواء فيما يأكلون أو يشربون

أو يلبسون أو يسكنون أو يركبون أو يملكون.. كما أنهم ليسوا سواء في أحوالهم الجسدية والعقلية والنفسية.. وهم كذلك أيضا في أشكالهم وأحجامهم وما الى ذلك مما لا يحصى أو يعد.. وما نحن بصدد التحدث عنه في هذين النموذجين من مواقف انما يصور لنا في وضوح ما تقدم من حديث ويبين لنا في إيجاز واختصار محتوى تلك التفاصيل.. وكلا النموذجين إنما حدثا في عهد الرسول ﷺ ووقعا في حضرته فإليك أيها القارئ الكريم النموذج الأول : فعن طلحة بن عبيد الله بن عثمان رضي الله عنه فيما رواه البخاري ومسلم أنه قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ من أهل نجد :

ثائر الرأس تسمع دَوِيَّ صوته ولا تفقه ما يقول « يعني شعره مبعثر منفوش غير مسرح يتكلم بحاجات ولعله ينشد شعرا.. جاء هذا الرجل وهو بهذه الحالة » حتى دنا من رسول الله ﷺ فاذا هو يسأل عن الإسلام « يعني جاء حنب الرسول وبقي يسأله عن أوليات الإسلام وضرورياته فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال « يعني الرجل السائل » هل عليّ غيرها ؟ قال « يعني الرسول للرجل » لا إلا أن تطوع « يعني تعمل زيادة خير من عندك غير الفرض عليك وبنا ».

فقال رسول الله ﷺ : وصيام شهر رمضان، قال هل

عليّ غيره قال لا إلا أن تطوع قال « يعني راوي الحديث » وذكر له رسول الله ﷺ : الزكاة، فقال هل عليّ غيرها ؟ قال لا إلا أن تطوع، فأدبر الرجل « يعني طلع من عند الرسول » وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال رسول الله ﷺ « أفلح أن صدق » « يعني ان كان كلام جد يكون قام بالعمل الذي ينجيه » هذا نموذج من الناس في صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولعل الرسول لم يذكر له الحج لأنه لم يكن قد فرض في ذلك الوقت، علما بأن كثيرا من المنهيات كانت معلومة لديه بالضرورة.

وإليك ـــ أيها القارئ الكريم ـــ النموذج الثاني :

فعن مجيبة الباهلية رضي الله عنها ـــ فيما رواه : أبو داود ـــ عن أبيها أو عمها « يعني أنها قالت أباها أو عمها » انه أتى رسول الله ﷺ، ثم انطلق « يعني جاء لزيارة الرسول وذهب » فأتاه بعد سنة وقد تغير حاله وهيئته فقال « يعني الرجل الكان غاب منه ديه » يا رسول الله أما تعرفني قال يعني الرسول » ومن أنت ؟ قال أنا الباهلي الذي جئتك من عام الأول « يعني العام الماضي » قال فما غيرك ؟ وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال ما أكلت طعاما منذ فارقتك إلا بليل، فقال رسول الله ﷺ عذبت نفسك، ثم قال « يعني للباهلي » صُم شهر الصبر « يعني رمضان » ويوما من كل

شهر، قال « يعني الباهلي » زدني، فإن بي قوة، قال صم يومين « يعني من كل شهر بعد رمضان » قال زدني، قال صم ثلاثة أيام، قال زدني، قال صم من الحرم، واترك صم من الحرم واترك قال بأصابعه الثلاث فضمها ثم أرسلها » يعني « قال له ممكن تزيد صومك شوية في الأشهر الحرم لكن برضك ما تواصل طوالى انما تصوم شوية وتترك الصوم شوية.. قال له الكلام ديه وهو يمثله بأصابعه الثلاثة ثم في النهاية ضم الأصابع الثلاثة مع بعض ثم تركه » وهذا كله لزيادة التوضيح وبيان التأكيد..

وما علينا إلا أن نقارن بين النموذجين، وننظر إلى الفارق بين الشخصين من خلال مواقف كل منهما.

« الحرية »

ان الحرية في الإسلام هي أن تصير حرا من أي قيد في عالم المجهول أو عالم المحسوس. الحرية هي : أن تصبح حرا في عقلك ونفسك وبدنك فحرية الإسلام حرية محررة من كل أنواع العبودية إلا الله الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك.. ثم أعطاك الحرية ومنحك.. فهي إذاً حرية محررة من كل قيد لا تشوبها شائبة العبودية لغير الله على الإطلاق..

فاذا خشي الإنسان مجهولاً فَقَدَ حريته بقدر ما خشي واذا ما ركن واعتمد على محسوس فقد طارت حريته بقدر ما اعتمد وركن.. فاذا ما هاب معركة لاعلاء كلمة الله في اعداء الله فقد حول الهيبة اليهم من الله.. ففقد حريته ورجع الى العبودية لغير الله ﴿ **أَتَخْشَوْنَهُم فاللهُ أَحَقُّ أن تَخْشَوْهُ إنْ**

﴿كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾[1] أما إن فعل العكس فقد استمسك بكامل حريته لأنه استعصم بصانعهاواعتمد على خالقها وواهبها.. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2].

فحرية الإسلام لا تجعلك بحال من الأحوال أن تستعبد حتى لمأكل تأكله أو مشرب تشربه أو ملبس تلبسه أو حديث تتفوه أو مشي تمشيه أو نوم تنامه أو أي عمل تؤديه فهو لا يستعبد لآكل لأنه يستطيع أن يتجنب أكل الحرام أيا كان نوعه وجماله وغلاؤه.. فلا تستعبد لحوم الخنزير نفسه، ولا الميتة ولا الدم ولا ما أهل لغير الله به ولا المنخنقة ولا الموقوذة، ولا المتردية ولا النطيحة ولا ما أكل السبع.. إلا ما رجع منها لأمر الله فذكي.. وذلك لجعل العبودية لواهب الحرية وحده لا شريك له..

وهو لا يستعبد لشرب ولذلك لا تجذبه الخمور لدائرة استعبادها كما لا يستعبد لملبس فلا يغريه الحرير ولا الذهب ولا التعري.. ما أحل الله لجسده.. ولا يستعبده الكلام

(١) سورة التوبة في الآية ١٣.

(٢) سورة آل عمران في الآية ١٧٣.

فيشتم ويلعن كما يشاء له لأن في مقدوره امتلاك ناصية لسانه والتحكم في هواجس نفسه.. وهكذا ـــ وهكذا فهو « أعني به المسلم » إنما يتجنب فعل الحرام للتجرد من قيد الحرام وعبوديته ليوجه عبوديته الخالصة لمن أمره بالمنع ونهاه عنه..

ـ فحرية الإسلام هي أن تحرر نفسك من عبودية المادة.. فلا تنهب أو تسرق.. وعبودية حب الذات فلا تغش ولا تختلس.. وعبودية النفس الامارة بالسوء.. فلا تزني أو تقتل أو تخبث.. فليست الحرية هي أن آكل حق الغير أو ألمسه أو أشربه وليست الحرية هي أن أغتصب الناس وأضرب الضعيف وأنهب المسكين وأسلب الفقير وإنما هذه هي الفوضوية واللاحرية.. وعليه فلا حرية إلا في الإسلام، ولا حرية إلا بالإسلام، ولا حرية إلا مع الإسلام لأن حرية الإسلام وحدها هي الحرية المتحررة، وما عداها فلا حرية.. وسمها ما تشاء.. فاذا ما قال الناس وبإسم الحرية أن يلبس الرجال لبس النساء وأن تلعب الغانيات كيف شئن على الهواء وأن تدار الكؤوس والسيجارة الخضراء، وأن لا يثور شخص على نفسه أو ماله أو عرضه !.

نقول لهم ان هذه إنما هي حرية المعتوهين البلهاء الذين شوهوا جمال الحرية وبدلوا صورتها وغيروا حقيقتها.. فهم

مستعبدون بحكم المادة الصماء ومملوكون للشهوة الرعناء ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[1].

فحرية الإسلام هي أن تتحرر من كل ما يعوق سلوكك.. هي أن تتحرر من كل ما يتسلط عليك ليرديك، نفسيا كان هذا التسلط أم عقليا أم جسديا اجتماعيا كان أم سياسيا وبذا يمشي المسلم على الأرض رافعا رأسه الى السماء.. لأنه لم يطأها لرجس أوْ يمشي عليها لدنس فهو حر من كل شيء يتعبد الناس وطليق من كل مادة تقيدهم، فاذا كان أولئك هم عبيد المادة عبيد الشهوة عبيد الناس.. فالمسلم وحده هو عبد الله. وعندما تتحرك فيهم أية نزعة غريبة سرعان ما يأتون عليها ويجتثونها من جذورها.. فعندما أثرت ريحة الملك على أنف ولد عمرو فضرب غريمه القبطي، قائلاً : أنا ابن الاكرمين.. سرعان ما أحضرهم عمر أمام عينيه ليبتر تلك النزعة الدخيلة على حرية الإسلام فجعل القبطي يضرب ابن الأكرمين ليريه تماما أين تقع هذه الكرامة..

ثم ختم هذا الحدث العظيم بقوله : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »..

---

(١) سورة الحشر في الآية ١٩.

« فضائل تثير عجبا »

كثيراً ما نجد أموراً إسلامية تحدث عنها المجتهدون.. بأفكارهم الثاقبة وعقولهم النيرة.. مستندين في ذلك كله الى كتاب الله وسنة رسوله فاذا بالخلف الذين جاؤوا من بعدهم.. تثيرهم وتدهشهم مواقفهم فيتناحرون ويتفرقون..

بل وقد يجعل بعضهم من « الحبة قبة » كما يقولون لأنه يسقي الحبة بماء آسن غير صالح ويرويها بأفكار جاهلة غير عالمة فاذا بها تنبت شجرة غزيرة في فروعها ضارة في ثمارها وعلى سبيل المثال « فالمالكيّة » وكثير غيرهم يقولون ان رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام فضيلة.. قال « ابن المنذر » لم يختلف أهل العلم في انه ﷺ كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة » أما الاباضية وهم جماعة إسلامية يسكنون في الشمال الإفريقي وغيره فلا يرون ذلك ولم يصح عندهم رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام.. ولذلك يقف الفرد منهم وقد ألصق يديه بجانبيه ثم يكبر للصلاة.. فاذا ما

زار فريق منهم الآخر.. أعني من يرفع ومن لا يرفع.. وقع الجدل بينهم ووقعت المشاحنات.. في أمر كله لا يتجاوز الفضيلة.. والفضيلة هي أدنى درجات سلم الأعمال.. فلا يبطل تركها صلاة أو يفسد عملا..

ولو أدركنا جيدا ما يسمى بالأحكام الخمسة وهي الفرائض والسنن والفضائل والحرام، والمكروه لوضعنا كل أمر في موضعه المناسب وميزانه اللائق.. وكما يرى المالكية وكثير غيرهم رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام يرى غيرهم ان هذا الرفع يكون أيضا عند الركوع في الصلاة وعند الرفع من الركوع.. فضيلة فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ اذا قام الى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه، ثم يكبر.. فاذا أراد أن يركع رفعهما مثل ذلك، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك وقال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » وذلك في رواية البخاري ومسلم والبيهقي. ولم يأخذ المالكية بهذه الرواية.. كما لم يأخذ الاباضية برواية الرفع مطلقا.. والموضوع أيضا في هذه الحالة لا يتجاوز فضائل الأعمال.. وقد علمنا موضع الفضيلة في ميزان الأحكام الخمسة المتفق عليها..

وقد تجد انسانا يصلي بجانبك وقد وضع يده اليمنى على ذراعه اليسرى.. بما يسمى بالقبض.. وهذه أيضا فضيلة

من فضائل الصلاة.. أخذ بها البعض كما هي واشترط عليها البعض الآخر شرطاً لا بد منه وإلاَّ فقدت فضيلتها.. ففيما رواه البخاري وأحمد، ومالك في موطئه، عن سهل بن كعب أنه قال : كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة.

هذا ما قاله سهل.. وأضاف أبو حازم الى قول سهل قائلا : لا أعلم إلا أنه ينمي ذلك إلى رسول الله ﷺ، بمعنى أن رسول الله ﷺ هو الذي كان يأمرهم بذلك.. وشرط المالكية في فضيلة القبض أن لا يقصد به الاعتماد على النفس بمعنى أن لا يكون القبض كسند له يساعده على الوقوف ويريحه.. فاذا نوى ذلك بقبضه يكون قد ارتكب مكروها في صلاته. وهذه أيضا من الأمور التي ينبغي أن لا تثير جدالا بين الناس لأنها لم تتجاوز الفضيلة..

ويقف المصلون ــ أيها القارئ الكريم ــ لصلاة الجماعة فيشبحون بأرجلهم حتى تتلامس إصبع بعضهم بعضاً أو تترادف وقد يلتصقون الى درجة تفقدهم الفضيلة، لأن من الفضائل أن يقف المصلي وقفة طبيعية لا تكلف فيها.. كما انه من الفضائل أن يترك بعدا مناسبا بينه وبين أخيه بعداً لا يسع شخصاً آخر وذلك حتى يتمكن من تجنيح يديه عند ركوعه.. بمعنى أن يفردهما قليلا حتى

يبعدهما من ملاصقة إبطيه في حالتي الركوع والسجود ويقرر العلماء ان من الفضائل أن يقرأ المصلي خلف الإمام في الصلوات السرية كالظهر والعصر ويقولون بكراهة القراءة خلف الإمام في الصلوات الجهرية كالعشاء مثلا.. إلا أن بعضهم وأعني الأئمة يطالبون بقراءة الفاتحة في السرية والجهرية على حد سواء.

فيقف شخصان في صلاة جهرية فاذا بأحدهم يقرأ والآخر لا يقرأ خلف الإمام وتبتدئ المناقشة عقب الصلاة.. وتهب العاصفة أو تكاد.

ان كل ما تقدم من مواقف إسلامية في الصلاة إنما هي أمور فقهية من حقها أن لا تثير عجبا لدى المصلين في أي مكان، بل من حقها أن نفتح الأذهان لهذه الأبعاد العظيمة.. وأن تجتمع القلوب حول معاناة هؤلاء المجتهدين في احترام وتقدير..

« حرب العصابات »

إن كثيراً من المسلمين لا يكادون يعلمون مدى صحة (حرب العصابة) في الإسلام ويجهلون فيما اذا كانت مقررة أو معترفا بها.. والواقع الذي لا ريب فيه هو أن العرب في أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف بل وفي غيرها من البلدان المجاورة لها.. كانوا يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويتحينون الفرص للانقضاض على المسلمين والهجوم عليهم في كل لحظة وحين..

فكان ﷺ يتتبع أخبارهم جميعا أولا بأول ويتحسس أحوالهم حالة فحالة.. حتى يكون المسلمون على بصيرة تامة من أمرهم ومعرفة كاملة بشؤونهم.. فكما علم ان قوما تجمعوا في جهة من الجهات أو آخرين تآمروا في طرف من الأطراف.. وجه إليهم من المسلمين عصبة تنكل بهم خلسة، وتذيقهم عذاب الهون بما كانوا يدبرون ويتآمرون.. فكان لذلك ما نسميه « بالسرية » وهم جماعة صغيرة تخرج باذن

الرسول ﷺ دون أن يكون في صحبتهم لتؤدب جماعة كافرة لسبب تأمرها وتربصها.. ويجعل الرسول ﷺ عليهم قائدا ينظم أحوالهم ويدبر شؤونهم ويخطط معاركهم وذلك بخلاف الحروب والغزوات التي كان يخرج فيها الرسول ﷺ بنفسه.

فها هي سرية غالب بن عبدالله الليثي رضي الله عنه، تشن الغارة تلو الغارة على بني الملوح، بأمر الرسول ﷺ، فتقتل منهم وتسلب ثم ترجع الى المدينة ظافرة بالنعم الكثيرة والمواشي، وها هو مرة ثانية يخرج إلى « فدك » ليؤدب قوما من بني مرة.. ومعه مائتا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولقد روى انه لما دنا من القوم وقرب من ساحتهم.. وقف خطيبا في جماعته : فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وان تطيعوني ولا تعصوني ولا تخالفوا لي أمرا، فانه لا رأي لمن لا يطاع، ثم ألف بين اثنين « بمعنى أنه جمع بينهما » وقال لا يفارق كل واحد منكم صاحبه واذا كبرت فكبروا » ثم وقع قتال كان النصر المؤزر فيه للسرية حيث قتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا عددا آخر واستاقوا كمية هائلة من المواشي.

وها هو شجاع بن وهب رضي الله عنه يزحف الى جمع من هوازن يقال لهم بنو عامر يسكنون على بعد ثلاثة مراحل

ثلاثين ميلا على وجه التقريب من مكة المكرمة، يبعثه الرسول ﷺ على رأس أربعة وعشرين رجلا ويأمره بأن يغير عليهم، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى أتاهم فغنم منهم مغنما كبيرا رجع به الى رسول الله ﷺ بالمدينة.

وهذه « سَرِيَّةُ » كعب بن عمير الغفاري تذهب الى منطقة من أرض الشام تسمى « بذات اطلاح » إلا أن عدد العدو كان كبيرا للغاية فاستشهدت السرية كلها، ولم ينج منهم سوى صحابي جريح..

وسرية عمرو بن العاص الى « بني قضاعة » في موضع يبعد عن المدينة بحوالي عشرة أميال، وذلك لأنه ﷺ بلغه ان جمعا من قضاعة أراد أن يغير على أطراف المدينة. فبعثه رضي الله عنه في ثلاثمائة صحابي من المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا، فسار بهم يمشي بالليل ويكمن بالنهار حتى اذا ما قرب منهم علم انهم في جمع عظيم وقوة كبيرة فأرسل الى الرسول ﷺ يستنجده فبعث اليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين من أصحابه الكرام فيهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق جنودا من جنود الله فرجعوا منتصرين كما أرسل الرسول ﷺ أبو عبيدة بن الحراج في سرية أخرى فيها أكثر من ثلاثمائة رجل الى حي من « جهينة ».. كانوا

يسكنون ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أميال فلم يقع قتال بينهم.. وها هي سرية « أبي قتادة » الانصاري رضي الله عنه الى منطقة في نجد ومعه خمسة عشر رجلا وأمره الرسول ﷺ أن يشن الغارة على قبيلة « غطفان » فسار يمشي بالليل ويمكن بالنهار وقتل من قتل وعاد الى المدينة بشيء عظيم، ثم لما أراد الرسول ﷺ أن يفتح مكة المكرمة دبر خطة حربية كان منفذها هو : أبو قتادة الانصاري نفسه حيث أرسله الرسول ﷺ للمرة الثانية في سرية أخرى الى جهة تقع على ثلاثة برد من المدينة تسمى « ببطن اضم » وذلك في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة المباركة بعثه الى تلك الجهة حتى يظن الظان انه ﷺ يتوجه الى تلك الناحية، ولتنتشر بذلك الأخبار فلا تستعد قريش لحربه حتى يدخل عليهم وهم في غفلة عنه، وكان ﷺ يتضرع الى ربه قائلا : الهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ولقد استجاب الله دعاه فعميت الأخبار عنهم فلم يعلموا بذلك إلا ليلة دخوله ﷺ.

وهكذا ــ أيها القارئ الكريم ــ تجد كيف أن السرايا أشبه ما تكون (بحرب العصابة) من دولة أرادت الاستقرار والأمن فأبى الأعداء أن يتركوها في استقرار أو أمن أو من

فئة أخرجت مظلومة من ديارها وأموالها فأخذت تشق طريقها للرجوع وتسلك سبيلها لاسترداد الحق وإزاحة العدوان وزهق الباطل : ﴿**إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾[1].

(١) سورة الإسراء آية ٨١.

« الذبابة »

لقد وقف الكثيرون مدافعين عن حديث الذبابة وأكثرهم ان لم أقل كلهم.. يجهلون مضمونه ويتلعثمون في محتواه.. ووقف آخرون كمنكرين لهذا الحديث النبوي الشريف وبعضهم ان لم أقل كلهم أجهل من الجهال وكلا الطرفين عندما يحاجونك لا يخرجون من أن الذبابة نجاسة.. وقد تحمل جراثيم فتاكة.. الى آخر ما في هذا النهج العقيم والمنطق السقيم والملاواة التي ترمي بصاحبها قبل أن ترمي العدو.. ان صح هذا التعبير فما موقف الذبابة اذا وقد تقف على قمامة.. وما مفهوم الحديث الذي قيل فيها..

فلقد روي (عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال : اذا وقع الذباب في شراب أحدكم : فليغمسه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء) وفي رواية : فانه يتقي بجناحه الذي فيه الشفاء »[1]. ان هذا الحديث النبوي

(١) رواه البخاري.

الشريف قد أوقع كثيرا ممن لا يدركون صحيح معنى ولا يصلون الى لب الموضوع أوقعهم فيما تقع فيه الذبابة نفسها أحيانا..

ولا أكاد أدري لم يستنكر المنكرون.. ألأنّها مخلوق ضعيف للغاية؟ فماذا اذا يقولون في قول الله تعالى ﴿**وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبَ والمَطْلُوبُ**﴾[1].

أم لأنه قوي فتاك للغاية.. وماذا يقولون اذاً في الحديث الشريف : ان الله عز وجل « لم ينزل داء إلا أنزل له دواء » ؟ ولنرجع إلى موضوعنا المطلوب..

فالحديث إشارة واضحة وبيان صريح وأمر لا يحتمل التأويل[2].. من أن في أحد جناحي الذبابة داء وهذا الداء لا كما يفهمه الكثيرون من أنه مكتسب قد يأتي به الذباب من قمامة أو مريض أو ما إلى ذلك.. وإنما الأصح وكما هو مفهوم الحديث ومنطوقه انه داء فطري فيه وطبيعي يقوم بكيان جناحه مثل ذلك كأية حشرة سامة تحمل داءها أعني سمها في رأسها أو ذيلها أو أي مكان في جسمها.. فهو

---

(١) سورة الحج في الآية ٧٣..

(٢) درجة الأمر هنا لم تصل الى درجة الوجوب.

طبيعي فيها خلقه الله معها وكذلك الأمر في داء الذبابة..

وفي الأخرى شفاء بمعنى دواء يشفي من ذلك الداء الفطري الطبيعي بعينه.. لأن هذا الدواء نفسه هو أيضا طبيعي يكمن في جناح الذبابة وليس هو بالدواء المكتسب الذي التصق بهذا الجناح من الخارج من أية جهة كانت.. لأن الأمر لو كان كذلك.. وفي كلا الحالتين قد يكون الداء موجودا وقد لا يكون موجودا وكذلك الدواء.. لأنهما يأتيان من خارج ذات الذبابة.. وهو ما لا يفهم من الحديث الشريف وعليه فمن الجائز المباح بل وقد يكون من الواجب المفروض أن يطرح السائل الذي وقعت فيه الذبابة ولو بعد غمسها في السائل اذا ما شك ولو مجرد شك في أن الذبابة تحمل داء غير دائها الطبيعي وميكروبا غير ميكروبها الفطري الذي خلق عليها.. وذلك على سبيل المثال بسبب أوْبِئَة طارئة أو تحذير من قبل المختصين في هذا المجال الصحي بسبب أو لآخر.. أو لأي أمر آخر لوحظ في الذبابة التي حضرته حتى ألقت بنفسها في التهلكة فغرقت في بئر الكوز مثلا وكل ذلك هو أيضا لا يخرج من مفهوم الحديث الشريف لأن الدواء في هذه الحالات لم يكن مخصصا لتلك الأدواء التي اكتسبها الذباب.. وعليه فقد يذهب الدواء سدى وبدون أن يؤدي مفعوله فاذا بالشخص قد يصاب بالضرر حيث لا ضرر ولا ضرار..

فما علينا اذا إلا أن نفهم الحديث على هذا المستوى الصحيح حتى نضع الأمور في نصابها.. ولا نثيرها ضجة فارغة أو شوشرة مارقة أو معمعة بارقة.. ونحن في كل ذلك نجد الحديث في جانب ومعاركنا في جانب آخر..

« زواج بطل »

نستعرض هنا موقفا هامّاً في كيفية زواج صحابي جليل ملأت بطولاته الأرض وأدهشت فتوحاته الفرس والروم على حد سواء.. حتى وان الفرس وهم آنذاك لا يدينون بدين الحق.. كانوا يكتبون اسمه تفاؤلا على سيوفهم ودروعهم ورماحهم ذلك البطل هو الإمام « علي » بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ ومن تربى في بيت النبوة وأول من أسلم من الشباب جاء أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم الى رسول الله ﷺ يطلب يد ابنته فاطمة ليخطبها.. فلم يعطه كلمة الموافقة ثم جاءه عمر بن الخطاب في يوم من الأيام يري خِطْبتها.. وكان أمره كأبي بكر. ولما جاء علي كرم الله وجهه أجابه على ذلك ووافق على خطبته.. وكان ذلك بعد رجوعه مع بقية المجاهدين من غزوة « بدر الكبرى ».

فكيف إذاً كانت مراسم الزواج وطريقة العرس ؟

لقد كان عمر الإمام علي عندما تزوج بفاطمة لا يتجاوز الواحد والعشرين عاماً إلا بقليل.. وكان عمرها لا يتجاوز الخمسة عشر عاما إلا بقليل لأنها قد ولدت قبل النبوة بسنة واحدة كما ذكر ذلك واستوضحه صاحب « السيرة الحلبية » إلا أن « علياً » لم يكن له من المال شيء في ذلك الوقت فجعل الرسول ﷺ درع على صداقا لفاطمة.. ثم عرض الدرع للبيع فبيع بأربعمائة وثمانين درهما لا دينارا والدرهم أقل من الدينار بكثير ثم قام الرسول ﷺ بأمور هدية منه لابنته فاطمة.. فأعطاها وسادة يعني مخدة محشوة بالليف، كما أعطاها أهاب كبش تفرشه يعني فروة جلد ومن فوقها قماش وأعطاها سقاء وجرتين بمعنى « قربة موية وقلتين ». ثم فرش لها البيت بالرمل ثم هيأ الرسول ﷺ للحاضرين زبيباً وتمراً..

هذا كل ما كان في زواج بطلنا المغوار.. فلم تكن هنالك ذبائح تذبح ولا « شيلة » تشال ولا مظاهر خداعة.. أياً كان نوعها أو شكلها.. وقد علمنا أيها القارئ الكريم من هو العريس ومن هي العروس؟ ولننظر كيف أشاد أصحاب الرسول ﷺ وأصدقاء علي وأحباؤه بهذا العرس ففي حديث مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه قال : حضرنا عرس علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله، فما وجدنا أحسن منه فهيأ رسول الله ﷺ زبيباً وتمراً » ذلك ما كان

في جانب الرجال، ولننظر الى جانب النساء ماذا كان :
يروي الطبراني من حديث أسماء بنت أبي بكر انها قالت :
لما أهديت فاطمة الى علي بن أبي طالب لم نجد في بيته إلا
رملا مبسوطا ووسادة محشوة ليفا، وجرة وكوزا » وهذا
الكلام كله إنما هو على سبيل الفخر بالقيم الجميلة، وعلى
سبيل العزة بالواقع الذي لا تكليف فيه والذي من شأنه أن
يورث الخير والبركة وأما التكلف فإنما يورث الخداع
والغش.. لهذا فلقد رُوِيَ أنه ﷺ أرسل الى علي يقول له :
لا تقربن أهلك حتى آتيك. فجاءه فدعا بأناء فسمى فيه
بمعنى انه طلب ماعونا وذكر اسم الله فيه وقال ما شاء الله
أن يقول ثم مسح صدر علي ووجهه ثم دعا فاطمة فجاءت
تعثر في مرطها يعني ثوبها من الحياء فنضح عليها يعني رش
عليها من ذلك الماء ثم قال اللهم بارك فيهما وبارك لهما في
نسلهما وقال في حقها اللهم إني أعيذها بك وذريتها من
الشيطان الرجيم » وقد ورد في الأثر ان الله تعالى قد فطمها عند
النار بمعنى انه قد منع عنها النار. كما تقول فطمت المرأة
الطفل اذا منعت عنه اللبن.. ولذلك سميت بفاطمة ولقد
ولدت فاطمة من علي رضي الله عنه الحسن والحسين
والمحسن وزينب وأم كلثوم ورقية. فأما الحسن والحسين
وزينب فلهم ذرية كثيرة وأما المحسن فقد كان سقطا على
أرجح الأقوال وأما رقية فقد ماتت وهي دون البلوغ ولقد

تزوج بزينب إبن عمها عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وأما أم كلثوم فقد تزوجها عمر بن الخطاب.. ولم يتزوج علي رضي الله عنه على فاطمة امرأة أخرى حتى توفيت وبعدها تزوج بوصية منها « أُمامة بنت زينب ».

ولقد حدث انه رأى علي بن أبي طالب أراد أن يتزوج بنت أبي جهل فأنكر ذلك الرسول ﷺ ولم يرض به وقال له « والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد » فترك علي الخطبة تمشيا على ما يرضاه الرسول ﷺ وهو أن لا تجتمع بنت رسول الله مع بنت عدو الله عند رجل واحد.. ولقد توفيت فاطمة رضي الله عنها على أصح الروايات بعد أبيها بستة أشهر وذلك في ليلة الثلاثاء أيام من رمضان سنة (١١) من الهجرة المباركة وقام بدفنها علي في ليلة وفاتها فرضي الله عنهما.. وعمن يسير على نهجهما.. الذي نهجه الرسول ليسير عليه الناس أبد الدهور..

« وليمة العرس والشيلة »

كلنا يعلم أن مسألة وليمة العرس والشيلة مسألة شائعة شيوع الماء والهواء لا سيما في بلادنا الحبيبة وهنالك توابع كثيرة لهاتين المسألتين : كحق فتح الخشم والحناء والكوافير والصبحية وما إلى ذلك من أمور لا تكاد تقف الى حد من الحدود اخترعتها الناس وابتدعوها.. ما أنزل الله بها من سلطان.. وهكذا شددوا بها على أنفسهم فشدد الله عليهم في تسيير أمورهم وقضاء مسراتهم بما هو فطري طبيعي لا تكلف فيه ولا حرج منه فعاشت لأسبابها اعداد كثيرة من الأسر يندبون حظهم فيما فعلوه بايديهم وساروا به على أهوائهم وجنوا به على أفرادهم..

لقد أبت نفوسهم إلا أن تجاري الزيف البراق دون الجوهر الأصيل وإلا أن تساير مطلبات الأمور دون أن تصل إلى الأعماق المطلوب والغرض المنشود.

وفي مثل هذا المقام قال صاحبي انه كان مغتربا أحد عشر عاما ويعول أسرة كبيرة أضناها الفقر فما وفر لنفسه خلال تلك الفترة شيئا يذكر ثم أسعفه الحظ فأراد الزواج.. فاذا بالوليمة والشيلة تقفان عقبة في طريقه وحجر عثرة في تحقيق أمنيته التي ظل ينشدها طوال حياته..

حيث قالوا له ان ما لديه من مال لا يكفي لإقامة الوليمة وان ما أحضره من شيلة قد أتى عليها الدهر وأكل منها وشرب حتى أصبحت موضة قديمة في عالم متجدد. فوقف صاحبي كما يقف حمار الشيخ في العقبة يندب حظه.. فكيف يجمع الآن ما لم يجمعه في غربته الطويلة. ومن أين له أن يوجد ما لم يوجده طوال حياته الثرة المعطاة ؟

هذا ما كان وباختصار في حديث صاحبي وهو يحاورني تجاه هذا الأمر الشائك الذي يعطل مهام الأمور لأسباب هي أَوْهَى من خيط العنكبوت وجوانب لا دخل لها في الصميم سوى دخول من (يفركش) الأمور الخيرة ويعرقل الأعمال الوجيهة النيرة ويسود الجوانب السمحة الوضاءة. فما موقف الإسلام اذا من هذه القضيّة وأمثالها.

ان مثل تلك الأمور لم تكن شرطا من شروط الزواج في الإسلام على الإطلاق كما انها لم تكن فريضة من فرائضه فكيف يتوقف عليها الزواج الآن ؟ فالزواج انما يتم من أوله

إلى آخره ومن بدايته الى نهايته بعقد يجتمع عليه بعض الناس وشهود يزاولون مهمة العقد بصيغته المطلوبة بتراضي الطرفين وصداق كلما قل دفعه كثر نفعه كما جاء على لسان المصطفى ﷺ « أقلكن مهرا أكثركن بركة » ثم يستلم الزوج زوجته فيواجهان الحياة طولا وعرضا بمدد من خالق الحياة والاحياء.. فأين نحن من هذه الفطرة الطيبة بل أين نحن من هذه الشريعة الغراء.

هذا كل ما هنالك في موقف الإسلام تجاه تلك القضية فلم تكن هنالك تعقيدات تنشأ منها خلافات ولم تكن هنالك عقد تفرز منها أحزان في مسرات.

فاقد تزوج الرسول ﷺ زوجاته كلهن فلم يعمل وليمة لاحداهن سوى السيدة / خديجة بنت خويلد أولى زوجاته.. وكان ذلك قبل بعثته ﷺ أما بعد بعثته فلقد تزوج ببقية أمهات المؤمنين وهن من ذوات المكانة العالية والجاه العريض والنسب العريق فلم يقم لاحداهن وليمة أو يدفع لاحداهن « شيلة ».. وما الى ذلك من أمور ربما أورثت التعقيد بدلا من التسهيل وخلفت الأحزان بدلا من الأفراح وهو يملك إن أراد أن يدفع الكثير والكثير إلا انه ﷺ قدوة المؤمنين وأسوتهم الحسنة ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾[1]

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

فلقد تزوج الرسول ﷺ بعائشة بنت أبي بكر وكلنا يعلم من هي عائشة ومن هو أبو بكر.. وتزوج بالسيدة « رملة » بنت أبي سفيان ومن منا يجهل أبا سفيان وتزوج بصفية بنت سعيد بني قريظة حيى بن يخطب، وبحورية بنت الحارث وكان الحارث سيد قومه.. كما تزوج « بهند » بنت أبي أمية وهي التي تسمى بأم سلمة، « وسودة » بنت زمعة.. وغيرهن من ذوات المنزلة الكريمة والمكانة الرفيعة فلم نجد لهن وليمة أقيمت أو شيلة رفعت وهن مَن هن : زوجات سيد الخلق، وأمهات المؤمنين وحملة الدعوة الى نساء العالمين الذي قال الحق تبارك وتعالى في حقهن ﴿يَٰنِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَاءِ﴾[2].

والمعنى كما يستوضحه الشيخ النسفي رحمه الله في تفسيره « أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء اذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم تُوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل ».

---

(١) سورة النساء في الآية ٨٠

(٢) سورة الأحزاب في الآية ٣٢

« منع الحمل »

في هذه المرة نود أن نتعرف موقف الإسلام من هذه القضية التي أثارت كثيرا من الجدل. وأقامت زوبعة من النقاش الذي يحد أحيانا الى درجة التفاقم ويهدأ أحيانا اخرى.. وكأنما الموضوع قد انتهى أمره فنسي ذكره.

ولأجل إظهار الموقف وإجلاء الحق لا بد لنا من استعراض آراء المجتهدين والتوقف عند أفكارهم فهم قدوة الأمة، في التحصيل وأئمتهم جيلا بعد جيل.. حتى يظهر الله أمثالهم ممن يتفانون في خدمة العلم ويستميتون في تحصيل المعرفة ويفنون أعمارهم ابتغاء مرضاة الله وطلبا لرضوانه..

ففي هذا المقام يدلي الأحناف بآرائهم حول هذه الأشكال ومذهب الحنيفية مذهب من المذاهب الأربعة المتفق عليها لدى عامة المسلمين وخاصتهم فهم يقولون « انه يجوز للمرأة أن تسد الرحم منعا من وصول ماء الرجل

اليه لأجل منع الحمل » وهذا الرأي واضح وصريح في ان المرأة يمكنها ـــ وبطبيعة الحال بعد موافقة الرجل على ذلك.. يمكنها أن تمنع الحمل بسد فم الرحم منعا لوصول الحيوان المنوي الملقح في داخل الرحم.. بعد أن أغلقت الباب عليه وذلك كما يفعل البعض في هذا العصر..

وعلى هذا الرأي فمنع الحمل أمر جائز لا شك فيه، سواء أكان المنع بقفل فم الرحم أو بالحبوب عن طريق الفم أو ما الى ذلك من أمور.. وذلك على أن لا يسبب هذا المنع ضررا واضحا سواء أكان هذا الضرر صحيا أو اجتماعيا أو ما الى ذلك وأن يكون سبب المنع لأمر مشروع.. كأن يلحق بها الضرر من الحمل أو الوضع عند الولادة.. أو أن تكون عادتها إنجاب أولاد ذي عاهة أو أطفال يعجزون عن تربيتهم.. فالمنع هنا خير من أن يخرج الطفل عالة أو متسولا أو عاجزا أو جاهلا.. فتنظيم الأسرة في هذه الحالة أمر لا حرج فيه.. ليخرج الطفل قويا صالحا يقوم الحياة ولا يكون عالة عليها ويطور المجتمع ولا يكون آفة عليه وهذا بعينه هو مصداق قول الرسول ﷺ « تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة » فمن يباهي بهم الرسول ﷺ الأمم يوم القيامة انما هم الصالحون منهم لأن المباهاة والتفاخر.. وما الى ذلك لا يكون إلا بالصالحين الخيرين

فليست هنالك مباهاة بمن لا يصلحون.. وان كثر عددهم لأنهم والحالة هذه إنما هم غثاء كغثاء السيل ..

واذا كان ما تقوم هو رأي الأحناف وموقفهم فما موقف الآخرين من العلماء يقول الشيخ الدسوقي « إنه يجوز العزل لمنع الحمل بشرط اذن الزوج بذلك » ومسألة العزل هذه كانت الوسيلة في الماضي لمنع الحمل وهي أن لا يقذف الرجل ماءه داخلا.. ولقد أقرهم على ذلك الرسول ﷺ..

فلقد روى البيهقي رحمه الله في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه فقال « سئل رسول الله ﷺ، قالوا ان اليهود يزعمون ان العزل هو المؤودة الصغرى، قال كذبت اليهود » والمعنى ان الرسول ﷺ قد وافق على العزل وأباحه في أمته فطبقوه في زمنه وعصره فهذا هو الصحابي المشهور عبدالله ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً عندما سئل عن العزل ذات مرة قال : « أما أنا فأفعله »..

وقد علمنا فيما سبق كيف ان الأحناف أدركوا أمراً آخر لمنع الحمل عن طريق سد فم الرحم وعليه فاذا ما أدرك الناس طرقا أخرى في أي زمن كان فلا مانع من فعلها في هذا المجال ما لم يورث ضررا حيث « لا ضرر ولا ضرارا »

وفي موطأ الإمام مالك رضي الله عنه حديث لا يخلو من ظرف وطرافة حيث « ان زيدا بن ثابت أمر الحجاج بن

عمرو أن يفتي رجلا من أهل اليمن في موضوع العزل فقال الحجاج : هو حرثك ان شئت سقيته وان شئت أعطشته » فاستحسن منه زيد تلك الفتوى وأيده عليها.. وعن جابر بن عبدالله ان رجلا أتى الرسول ﷺ يستفتيه في شأن جاريته التي يكره أن تحمل ان هو أتاها وذلك لحاجته اليها في الخدمة.. فقال له الرسول ﷺ « أعزل عنها إن شئت فانه سيأتيها ما قدر لها » وفي هذا الحديث روعة وشفافية تنبىء عن أمر لم يكن معلوما لديهم آنذاك وهو الحيوان المنوي الذي ربما وصل الى رحم المرأة بالرغم من العزل الذي حدث.. وعندئذ يأتيها ما قدر لها..

« الإجهاض »

لقد سبق أن تحدثنا في موضوع منع الحمل من أساسه يعني قبل أن يكون هنالك حمل في رحم المرأة أو جنين في بطنها.. وأدركنا موقف الإسلام من ذلك وعلمنا آراء العلماء والمجتهدين.. أما حديثنا في هذا الموضوع انما هو في موقف الإسلام من الاجهاض.. وانه لمن المعلوم بالضرورة ان الإجهاض يعني أن تنزل المرأة ما في بطنها من جنين بطريقة أو بأخرى أمر أعظم وأكبر من موضوع منع الحمل من بدايته.. ولذلك اختلف المجتهدون فيه اختلافاً كبيراً وتضاربت آراؤهم تضاربا عظيما.. وما علينا إلا أن نوجز آراءهم بقدر المستطاع حتى يقف المسلم منها موقفا محدداً يعلم بعدها أين يضع رجليه وإلى أين يصوب وجهته.

والواقع الذي لا جدال فيه هو أن علماءنا لم يتركوا أحدث ما وصلت اليه العلوم الانسانية والمعارف البشرية.. دون أن يتحدثوا فيها مستنيرين في ذلك كله بنور الكتاب

الذي لم يفرط في شيء فيه مصلحة للبشرية أو مضرة ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ ومسترشدين بأحاديث الرسول ﷺ التي بيَّنت الكتاب وأوضحت السبيل ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ومن هنا نجدهم يتحدثون في أمور لم يظهر معظمها ظهورا ذا أهمية إلا في القرون الأخيرة بل ان بعضها لم يلتفت إليها الناس إلا في القرن العشرين.. علما بأنهم قد بحثوا عن أشياء من هدي الكتاب والسنة لم تظهر بعد ظهورها الكامل.. حتى في قرننا الحاضر..

فلقد ذهب الأحناف والشافعية في موضوع الإجهاض منذ قرون وقرون.. وكأنهم كانوا يعيشون معنا اليوم.. ذهبوا مذهبا فيه شيء من الغرابة في أذهان الكثيرين من الناس حتى في عصرنا الحاضر.. فقالوا : ان الإجهاض جائز لا حرج فيه قبل نفخ الروح فيه. لكن بشرط أن يكون ذلك الإجهاض

---

(١) سورة الانعام في الآية ٣٨

(٢) سورة النحل في الآية ٤٤

قبل نهاية الأربعة أشهر من بداية الحمل.. وذلك لأنه يكون قبل نفخ الروح فيه.. مؤكدين إن نفخ الروح إنما يكون عند بلوغ الأربعة أشهر.. وهكذا تحدثوا في موقفهم الواضح.. حتى عن أمور يسترشد فيها الطب بآرائهم..

واذا كان ما تقدم هو موقف الأحناف والشافعية فما هو موقف غيرهم من المجتهدين يقول بعض المالكية وليس جميعهم ان الإجهاض حرام قطعا سواء أكان ذلك قبل الأربعة أشهر أم بعدها.. وهو خلاف ظاهر على ما تقدم..

أما البعض الآخر من المالكية فيقول ان « الإجهاض » مكروه فقط قبل الأربعة أشهر والمعنى انه لم يصل الى درجة الحرية ان كان قبل الأربعة أشهر ولا دخل هنا أيها القارئ الكريم لقول القائل من تعاطى المكروه عمدا دون شك تعاطى الحرام.. فهو قول من أقوال الشعراء لا دخل له في أحكام الشرع وموقف العلماء.. فالمكروه هو الشيء الذي لا يعاقب فاعله ويثاب تاركه وهو في العبادات كلها لا يؤدي الى بطلان العبادة أبدا.. أما إن فعل الإجهاض بعد الأربعة أشهر فانه حرام قطعا عند هذا البعض من المالكية أو عند غيرهم من علماء المذاهب المختلفة.. وعليه فان جميع المجتهدين والعلماء يحرمون قولا واحدا بعد الأربعة أشهر، وما ذلك إلا لأن الجنين قد نفخ فيه الروح. وهم على ذلك

يلزمون « الدية » أعني دية القتل أي دفع المال المعوض للتي تقوم بالإجهاض بعد الأربعة أشهر من وجود الطفل في بطن أمه..

ومن خلال هذه الآراء كلها ومواقف العلماء نستخلص موقفا واضحا تجاه هذه القضية التي ساهم فيها المجتهدون بآرائهم الثرة وأفكارهم الناضجة.. قبل أن تتأزم الأمور في عصورهم كما تأزمت في عصرنا الحاضر..

فما يؤخذ من جملة آرائهم هو انه اذا ما كان الإجهاض لسبب ضروري مشروع كالخوف على حياة الأم مثلا.. فهو جائز لا حرج فيه سواء أكان ذلك قبل الأربعة أشهر أم بعدها.. أما اذا كان الإجهاض دونما سبب مشروع ولا خوف من عمليته.. فمكروه قبل الأربعة أشهر.. وحرام مجمع عليه بعد الأربعة أشهر..

« إنسان الأنابيب »

لقد علمنا فيما سبق كيف ان موقف الإسلام واضح تجاه قضية منع الحمل وقضية الإجهاض كما علمنا مواقف المجتهدين من ذوي العلم والمعرفة الذين يأخذون من أصول هذا الدين الحنيف ثم ينشرونه بيننا فاذا بنا نتلقى ما نشروه دون أن يصيبنا ما أصابهم من عنت الجهد وتعب الإرهاق الذي لا يكاد يحتمله إلا من وهبه الله القدرة على التحمل ورزقه الصبر على العناء والتبتل..

وفي موضوعنا الآن نود أن نطرح قضية من القضايا التي يجوز أن يقال عنها : قضية ولا أبا حسن لها. كما جاءت على لسان عمر في حق علي كرم الله وجهه وهي قضية « إنسان الأنبوبة » إن صح هذا التعبير « أو قضية الاخصاب خارج الرحم بتعبير أدق » ولقد ظهرت هذه الحالة وأمثالها بعد التطور الهائل في معارف البشرية والتقدم العريض في جوانب « التكنولوجيا » الحديثة علما بأن هذه الكلمة بحذافيرها..

وأعني بها « التكنولوجيا » لم تكن أجنبية عن واقع المسلمين قط بل هي مأخوذة منهم.. لأنها بمعنى التقنية المأخوذة من الاتقان، فهي إذا عربية بحق، ولم يكن فيها من زائد سوى كلمة « لوجيا » هذه والتي نسبت بموجبها إلى غير أهلها من المسلمين زورا وبهتانا..

ـ ولقد كانت التقنية والاتقان.. هما من أحب الأمور إلى الله في عمل المسلمين وفي مثل هذا يقول الرسول الأمين « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ولقد كان الأوائل يتقنون كل عمل امتثالا لأوامر شرع الله ولو ظل الخلف يأخذون عن السلف بقدر اتقانهم لظهرت الحضارة التي نحن فيها الآن على أيدي المسلمين، قبل أكثر من سبعة قرون من الزمان على وجه التقريب..

فما موقف الإسلام اذاً من مثل هذا الموضوع الذي نحن فيه ؟ إن موقف الإسلام في هذا الموضوع وما شابهه من المواضيع لا حصر لها.. كزرع الأعضاء وغيره على سبيل المثال يتبين لنا مما يلي وهو :

إن كثيراً من الأمور التي يسندها القرآن الكريم إلى الله عز وجل ليس معناه ان الانسان لا يكون له فيها نصيب من قريب أو بعيد اللهم إلا اذا جاءت الآيات تحصر الأمر كله وتقصره على الخالق عز وجل بأداة معلومة.. وعلى سبيل

المثال لا الحصر نورد بعض آيات الله البينات في هذا الموضوع لتوضيح القاعدة وتبيين المنهج حتى يدرك المرء مدى الاشارات الدقيقة فيما يتلوه عابرا وكان لم يكن هنالك شيء يلقنه فيما يتلوه.. فعندما يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

لا بد وان نتساءل: لماذا يا ترى جاءت الصيغ مختلفة والعبارات متعايرة؟ ففي الأولى ان الله عنده.. أما في الثانية والثالثة وينزل الغيث، ويعلم ما في الارحام أما في الرابعة والخامسة وما تدري نفس.. الخ انه لا شك ان لكل حالة منها وضعاً يخصها.. وعليه فما لا حصر فيه ولا نفي كقوله تعالى: **﴿وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾**[2] ليس فيها منع لنشاط عقل الانسان ومحاولة عمل شيء ما تجاههما بقدرته الحادثة وعلمه الحادث، وهما أشبه بقول الله تعالى **﴿واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[3] فليس المعنى ان الانسان يقتضيه أن لا يعلم شيئاً، لأن الله بكل شيء عليم. وكذلك: **﴿إِنَّ**

---

(١) سورة لقمان في الآية ٣٤

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢.

اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] لا يقتضي ان البشر لا يعلمون بشيء وانما علمه سبحانه وتعالى وقدرته قديمان وقدرة العبد وعلمه حادثان..

وعليه فكلمة عنده في الآية الكريمة يفهم منها ان هذا الأمر لم يكن عند غيره ـــ سبحانه وتعالى كائنا من كان فعلم الساعة لم يكن لغيره عز وجل وهى شبيهة بقوله تعالى: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَٰتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾**[2]. وكذلك كلمة: **﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾**[3] فقد جاءتا بصيغة تحترم عدم معرفتهما لغير الله عز وجل »[4]. وهكذا وفي وضوح نجد هذا التغاير في التركيب وان كان الكل معطوفا مما يوحي بشيء نتلمسه من خلال التركيب لأنه لم يكن هنالك شيء يذكر سدى في كتاب الله..

وعلى هذا القرار تأتي الآيات الكثيرة **﴿ يَخْلُقُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُم خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾**[5].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٥.

(٢) إلا من ارتضى من رسول، سورة النمل آية ٦٥.

(٣) سورة لقمان آية ٣٤.

(٤) يذكر بعض المفسرين ان هذه الآيات: « من مفاتح الغيب » المشار إليها بقوله تعالى: « **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** » مستندين في ذلك لما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهم جميعاً.

(٥) سورة الزمر آية ٦.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَـٰلِقُونَ ﴾[1] ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحرُثُونَ ءَأَنْتُم تَزْرَعُونَه أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ ﴾[2] ﴿ أَفَرَءَيْتُم الماء الَّذي تَشْرَبُونَ أنتم أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أم نَحْنُ المُنْزِلُونَ ﴾[3] أَفَرَءَيْتُم النَّارَ الَّتِي تُورُون ءَأَنْتُم أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَم نَحْنُ المُنْشِئُونَ﴾[4] ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾[5] ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ ﴾[6] ﴿ أَفَلا يَنْظرون إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[7] فمما لا شك فيه ان هذه كلها من عند الله عز وجل.

غير أن على المسلم أن يتدبرها عميقاً ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾[8] يتدبرها ليخرج منها بثمار مفيدة وعلوم جديدة.. كما فعل ذلك الأولون لا أن يقف منها موقف المتوجسين أو يحاول بعد لأي أن يتبناها تبنّي الخائفين ولكن من حق — والقرآن بين يديه — أن يكون في أوائل المكتشفين ومقدمة المستثمرين وطليعة المخترعين ».

(١) سورة الواقعة. الآيتان ٥٨ و٥٩.
(٢) سورة الواقعة. الآيتان ٦٣ و٦٤.
(٣) سورة الواقعة. الآيتان ٦٨ و٦٩.
(٤) سورة الواقعة. الآيتان ٧١ و٧٢.
(٥) سورة الأنفال آية ١٧.
(٦) سورة الطارق الآيتان ٥ و٦.
(٧) سورة الغاشية الآية ١٧.
(٨) سورة محمد الآية ٢٤.

مسلمات في قمة الآداب

نحن هنا ــ أيها القارئ الكريم ــ نود أن نستعرض كلمات في غاية البلاغة والفصاحة، من مسلمات في غاية الايمان والالتزام. وذلك حتى نطلع على مواقفهن الإسلامية من خلال هذا الجانب « البياني العامر » فلقد كنّ وهنّ ثلاثة : الزرقاء بنت عدى، وأم الخير البارقية، وعكرشة بنت الأطرش، كنّ في حرب صفّين وفي صف الإمام « علي » كرّم الله وجهه، وحرب صفين هذه كانت قتالا مرا بين علي ومعاوية في فتنة لعب فيها أعداء الإسلام كثيرا وزاد في اشعال نيرانها أهل الرياء والنفاق، بمعسول الحديث، فكانوا على حد قول القائل :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة
ويروغ منك كما يروغ الثّعلب

وقفت الزرقاء بنت عدى تقول وهي تخاطب جمهور

المقاتلين في تبصر ونصح، (أيها الناس أرعووا وارجعوا) « تقصد الرجوع الى الله » لا من القتال « انكم أصبحتم في فتنة، غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد الحجة، فيا لها فتنة عمياء، صماء، بكماء، لا تسمع لناعقها ولا تسلى لقائدها، ان المصباح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تنير مع القمر، ولا يقطع الحديد الا الحديد، (ثم أخذت تواصل قائلة) ألا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس، ان الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبرا معاشر المهاجرين، والأنصار على الغصص، فكأنما اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة التقوى، ودفع الحق باطله، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف العدل، واني ليقضي الله أمرا كان مفعولا ؟ ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في عواقب الأمور، أيها الحرب قدمنا غير ناكصين، ولا متشاكسين.

أنظر أيها القارئ الكريم كيف كان هذا البيان الساحر ؟ وكيف كانت هذه المواقف البطولية التي تفوق حد الوصف، من الزرقاء، وللنظر كيف كانت بطولة « أم الخير » وفصاحتها ؟ كانت أم الخير في هذه الواقعة الحربية ترتدي بردا زبيديا كثيف الحاشية تخين السمك على

جسدها وهي على جملها الرمادي[1] وبيدها سوط متعدد الضفيرة تذهب يمينا وشمالا، وهي تهدد وتثور كأنها الفحل المسعور وتنادي في الناس قائلة : « أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم، ان الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، وأنار السبيل، ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء، مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فأنّى تريدون يرحمكم الله أفرارا من أمير المؤمنين ؟ أم فرارا من الزحف، أم رغبة في الإسلام ؟ أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَٰهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[2] ثم رفعت رأسها الى السماء وكأنما تتضرّع الى الله واستمرت تقول في فصاحتها المعهودة : قد عمل الصبر وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى، ثم أخذت تنادي في القوم : هلموا رحمكم الله الى الامام العادل، والوحي الوفي، والصديق الأكبر، انها أحقاد « بدرية » (تعني غزوة بدر) وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، (اشارة الى غزوة أحد) وثب بها معاوية على حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني شمس (وتستمر هكذا في

---

(١) تذكرني بكلمة الشاعر :

يا أم ضفاير قودي الـــرسن   واهتفـــي فليحيـــا الوطــــن

(٢) سورة محمد آية ٣١.

بلاغتها) الى أن قالت : وكاني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام) وهم أصحاب معاوية.: كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، ألا تدري أين يسلك بها من فجاح الأرض) إلى أن قالت (انه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ومن لم يسكن الجنة، نزل في النار).. الخ. آخر ما قالت من حديث طويل لا يسعه هذا المجال القصير.

أنظر أخي الى هذه البلاغة، كيف تتدفق من لسانها، وإلى هذه الدرر كيف تنتثر من فمها ارتجالا. ولنشاهد بطلة أخرى، وهي أيضا فريدة في نوعها، وحيدة في هذا المجال بين مثيلاتها، فهذه « عكرشة » تخطب في الجمع يوم صفين وقد علقت حمائل السيف بين جنبيها، فتقول : أيُّها النَّاسُ عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضَلَّ اذا اهتديتم[1].

ان الجنة لا يحزن من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم هممها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم، مستظهرين على حقهم، ان معاوية دافع اليكم بعجم العرب، لا يفقهون ما الايمان،

---

(١) أما الآية فهي:﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾. سورة المائدة في الآية ١٠٥.

ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم الى الباطل فأجابوه، واستدعاهم الى الدنيا فأبوه.

فالله، الله، عباد الله في دين الله، واياكم والتواكل فان ذلك يتقصد عرى الإسلام، ويطفىء نور الحق، هذه (بدر) الصغرى، والعقبة الكبرى والأخرى، يا معشر المجاهدين والأنصار، أمضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهضة تقصع قصع البعير).

فأية امرأة في زماننا هذا وقفت مثل تلك الوقفات.. أفلا تصلح كل وقفة منها عيدا ليوم المرأة العالمي ؟ أم ما وقع في (استوكهولم مثلا أو (صوفية) كان أجدر بالذكر مما وقع في (صفين) أم ان الماضي كان خالدا، وتليدا، وكل يوم فيه كان نصرا، وعيدا ؟

« بين المصافحة والمعانقة »

إن من أبرز الأمور في تكوين الانسان ذلك الشعور والاحساس الذي يكمن في داخله ويخرج تجاه أخيه عندما يلقاه بصورة أو بأخرى، والإسلام لم يهمل هذا الجانب أبدا بل تحدث فيه كثيراً وجعله معروفا يثاب عليه وصدقة يُجازى بها..

فقال عليه الصلاة والسلام : « وتبسمك في وجه أخيك صدقة » ويحكي أبو ذر رضي الله عنه عن نفسه فيما رواه مسلم قائلا : قال لي رسول الله ﷺ : لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » والواقع الذي لا شك فيه هو ان كل عمل خير يُجزى به الانسان خيرا حتى ولو كان بمقدار ذرة: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[1]

---

(١) سورة الزلزلة في الآية ٧ ـــ ٨

فإزاحتك وابعادك لما يؤذي الناس والدواب والسيارات في الطريق.. من شوك أو حجارة أو غيرها صدقة وكذلك ازاحتك وطرحك حشرة من ثوب أخيك صدقة وحتى اللقمة أيها المسلم تضعها ولو عن طريق المداعبة في فم امرأتك فهي صدقة.. وهكذا فما من عمل خير يدل على ما في الباطن من خير ويخرج عن طيب خاطر.. إلا وكان ثوابا وصدقة واجرا..

واذا علمت هذا فلا بد لنا وأن نعلم شيئا.. عن مصافحة الانسان لأخيه أو معانقته أحيانا وأو تقبيله..

ومما يجدر ذكره هنا ان بعض الدول المتقدمة ماديا أخذت تتوجس خيفة بمعنى انها تخشى وتخاف من موضوع المصافحة أعني أن يسلم الشخص على أخيه في كف يده بحرارة اللقاء فضلا عن المعانقة.. فهم يخافون في هذه الحالة انتقال الجراثيم عن طريق الأيدي المصافحة.. وهكذا يظنون.. وعلى حسن هذا الظن يحاولون أن يمسحوا الروح الانسانية العطرة في الانسان..

فما موقف الإسلام اذا من هذا الجانب فلقد كان أصحاب الرسول ﷺ يتصافحون اذا لقي أحدهم الآخر يمد له يده فرحا ويبش في وجهه مسرورا وفيما روى البخاري عن أبي الخطاب قتادة : انه قال : قلت لأنس أكانت

المصافحة في أصحاب الرسول ﷺ ؟ قال نعم » وهذا هو رسول الله عليه ﷺ يقول مبشراً لندفع المسلم تجاه أخيه مصافحا يقول فيما رواه أبو داود عن البراء رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله ﷺ ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا » وإذا رجعنا أيها القارئ الكريم الى التاريخ الغابر نتفقد مآثره في هذا الجانب أعني جانب المصافحة نجد الرسول ﷺ يذكرنا بموضوع له اثره البالغ وأهميته الكبرى من حيث التاريخ ففيما رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه انه قال لما جاء أهل اليمن قال رسول الله ﷺ قد جاء أهل اليمن وهم أول من جاء بالمصافحة » واذا كانت المصافحة فضيلة محبوبة من فضائل الإسلام وكذلك البشاشة والوجه الطلق فما موقف الإسلام من المعانقة كما نشاهدها في مقابلاتنا اليومية عندما يحتضن الإنسان أخاه وما موقفه من تقبيل الوالد لولده..

علما بأننا في عصرنا الحاضر نجد أن التقبيل قد انتشر حتى في الكبار من غير الوالد، وذوي الأرحام كما انتشر الإنحناء والمعانقة في كل حال من أحوال المقابلات.. وتأتي الأحاديث الشريفة وتعليم المربي الأكبر لتضع لنا كل أمر في موضعه المناسب وتبين كل حالة بما هي أهل لها ولنشاهد هذه التعاليم الواضحة فعن أنس رضي الله عنه فيما رواه : الترمذي انه قال، قال رجل : يا رسول الله الرجل منا

يلقى أخاه أو صديقه : أينحني له ؟ قال :لا. قال « يعني الرجل السائل » أفيلتزمه ويقبله « يعني يعانقـه ويقبلـه » قال : لا. قال فيأخذه بيده ويصافحه ؟ قال نعم » ومن هذا الحديث ندرك ونعلم : كراهية الانحناء وكذلك تقبيل كل من هب ودب.. أما المعانقة فهي جائزة لا حرج فيها لكن لمن يحضر من سفر أو يأتي من مكان بعيد أو يزورك بعد غيبة طويلة.

فعن عائشة رضي الله عنها فيما رواه الترمذي انها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة « يعني حضر من سفر » ورسول الله ﷺ في بيتي فأتاه فقرع الباب فقام اليه النبي ﷺ يجر ثوبه فاعتنقه وقبله. وزيد هذا كان قد تبناه الرسول ﷺ حتى نزلت الآيات فانتهى التبني : وعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه البخاري ومسلم انه قال : قبل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه فقال الأقرع بن حابس ان لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فقال النبي ﷺ من لا يرحم لا يرحم ».

« كلمات غيرت مجرى التاريخ »

إنني لا أشك في اننا جميعا نعلم ولو شيئا قليلا عن غزوة « بدر الكبرى » تلك الغزوة التي يقيم لها المسلمون في أطراف الأرض احتفالات تليق بمكانتها وتناسب منزلتها وذلك من دون الغزوات كلها مع عظم قدرها..

فغزوة بدر الكبرى كانت فاصلا بين الكفر والايمان وكانت نصراً للمسلمين مع قلة عددهم وقوتهم وأسلحتهم كما صرحت به الآيات الكريمة ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾[1] وأكبر من هذا كله هو أن المسلمين لو هُزموا ــ لا قدّر الله ــ في هذه الغزوة.. لذهب العدو بعد الانتهاء منهم إلى المدينة المنورة لينتهي من بقية المسلمين فيها لأن المسلمين حتى ذلك الوقت انما كانوا محصورين في المدينة فقط ولم يكونوا كما نحن الآن في كل مكان في الأرض وكل بقعة فيها ولقد أوضح الرسول ﷺ مدى تلك

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٣.

الخطورة عندما أخذ يتضرع الى ربه، وقد لبس درعه ذات الفضول » وتقلد سيفه « الغضب » أخذ يتضرع قائلا : اللهم أن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد ».

وقف الرسول ﷺ يستشير أصحابه للدخول في هذه المعركة الغير متكافئة وهو يعلم حقا ما أعده المشركون، كما يعلم ان أصحابه لم يخرجوا مستعدين لغزوة وانما خرجوا لإستلام العير.. وهي الابل التي كانت محملة بالتجارة، ويقودها أبو سفيان مع قلة من معاونيه لا تتجاوز الأربعين رجلا ولقد أبدى ذلك بعض أفراد الجيش بصراحة تصحبها قوة الايمان، فقال هذا البعض إننا لم نتوقع قتالا يا رسول الله حتى نتأهب له وإنما خرجنا للعير..

وعند ذلك نهض أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وقالا حديثا قويا يؤيد القتال ويحبذ السير تجاه العدو، ثم قام المقداد بن الأسود فقال كلمة لا يزال لها دويها في آذان المسلمين وقلوبهم الى يومنا هذا، قال : يا رسول الله أمض ما أمرك الله به فنحن معك فوالله لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون » ولكن نقول : أنا معكما مقاتلون ».

فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك القول من هؤلاء النفر اشتاقت نفوسهم للقتال أكثر فأكثر حتى ظهرت علامات السرور فيهم أما الرسول ﷺ فلقد أشرق وجهه

نورا وأراد المزيد من الاستشارة فقال : أشيروا علي فقام عمر مرة ثانية يبدي بعض النصائح لتقوية الايمان ليكون سلاحا قاطعا ويظهر جانب العدو وجبروته حتى يكون المسلم على وعي منه وبصيرة فقال يا رسول الله إنها قريش، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أُهبته وأعد لذلك عدته ».

ثم استشارهم الرسول ﷺ للمرة الثالثة قائلا : أشيروا عليّ أيها الناس ففهمت الأنصار انه يعنيهم لأنهم كانوا أكثر عددا فقال له سعد بن معاذ وكان سيد قبيلة « الأوس » ــ لعلك تريدنا معشر الأنصار يا رسول الله فقال : أجل « يعني نعم نريدكم أنتم » وهنا قام سعد ليتفوه بكلمات هزت الوجدان وما زالت تهزه، وحركت الايمان عملا وما زالت تحركه كلمات في قوة الصواعق نزلت في قلوب المؤمنين بردا وسلاما، قال : قد آمنا بك وصدقناك ــ وشهدنا ان ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وسالم من شئت وعاد من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب مما تركت، وما أمرت فيه من أمرنا فأمرنا تابع لأمرك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر

فخضت لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وأنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تَقَربه عينك فسر بنا على بركة الله فنحن عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك » فسر الرسول ﷺ وأشرق وجهه من كلام سعد وقال لهم : أبشروا فان الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين انها لكم « والطائفتين عير قريش التي حُملت بالتجارة والنفير الذي جاء للقتال » وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم « يعني الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة وهي العير وهذه البشارة المقدمة هي من معجزاته ﷺ، حيث انه أكد لهم ان واحدة من هاتين الطائفتين ستكون لهم، وعليه فمن الضروري أن يطلبوا ذات الشوكة لأنها أعظم غنيمة وأكثر نفعا.

وهكذا كانت الكلمات التي غيرت مجرى التاريخ وبدلت وجهه وفتحت صفحة جديدة لبداية عهد جديد..

« مسلمات في قمة التاريخ »

لقد طاف بخاطري ــ أيها القارئ الكريم ــ وأنا أنظر الى شاشة « التلفزيون » في ليلـة الأمس القـريب[1] حيث كانوا يتحدثون في اليوم العالمي للمرأة، طاف بخاطري عدد كبير من مآثر المسلمات الخالدات في تاريخنا الإسلامي الطويل العريض وقلت في نفسي أنه لمن العجب العجاب أن لا نذكر أولئك اللاتي ملأن التاريخ.. كله علما وحكمة بل وتعلّم على أيديهن عباقرة فاض الزمان بعلمهم واستنارت العقول من ظلمات الجهل بمعارفهم كما قلت في نفسي أكثر من ذلك.

قلت : ماذا يعني يوم واحد للمرأة.. ؟ من ملايين الأيام وبلايينها للرجل. أفلا ينقص هذا من قدرها ؟ ويقلل من شأنها ؟ أفلا تكون الحالة هكذا أيضا عندما ينادون بعيد

---

(١) وقع ذلك في العام الماضي ١٩٨٤ م

خاص بها يسمونه « بعيد الأم مثلا ».. لقد رأيت أن هذه المسائل كلها وما شابهها وكأنها دخيلة علينا.. وليست من طباعنا.. فمهما احتجوا بمواقف المرأة في الخارج فان لنا مواقف أعظم منها علما وعملا وسلوكاً وكفاحا بل وأكثر من ذلك فلقد كانت جميع أنماط حياتهن وطريقة تفاعلهن في المجتمعات الإسلامية لا يميزها عن الرجل قلة.. ولا تفصلها عنه مهانة أو ذلة.

ولذلك لم يكن لهن يوم واحد يميزهن أو يميزن به. بل كانت الأيام كلها لهن كما كانت للرجل أيضا. ولم يكن لهن عيد واحد يأتي لساعات محدودة بعد مرور عام كامل انما كانت أيامهن كلها أعياداً وأعياداً تماما كما كانت للرجل أيضا فلم يكن هنالك تمييز ولا تفريق إلا في عصرنا هذا الذي جعل يميز ويفرق ولا ندري إلى متى يكون كذلك ؟

فلقد قامت نساء الإسلام بأدوار في غاية الأهمية في تاريخ المسلمين مما جعل التاريخ يسجل أفعالهن بمداد من نور، قلما يشاهده إلا من كان في عقله نور.

فقد كن ينظمن الشعر ويحفظنه ويتعلمن الآداب ويسجلنها ويرافقن الرجال الى ساحة القتال ويطببن الجرحى ويداوين المرضى. كل ذلك يفعلنه ويتعلمنه منذ نعومة

أظافرهن بوازع الإسلام وأوامره وتعاليمه فأين نساء هذا العصر من نساء عصورهن.. كن عالمات بجميع أمور دينهن وعالمات بجميع شؤون حياتهن، حتى برز منهن من سجلهن التاريخ في قمته وحملهن الزمان على جبينه طوعا أو كرها رغم أنف التاريخ وأنف الزمان كان منهن الفيلسوفات بل ومنهن الملكات.

فهذه « زينب » بنت أبي القاسم العالمة الكبيرة التي جمعت من العلوم والمعارف ما جعلها موضع العزة والفخار فتتلمذ على يدها عدد كبير من علماء عصرها ومن أشهرهم قاضي القضاة « شهاب الدين بن خلكان » المؤرخ المشهور الذي لا يخفى على أحد. وقد أجازها واعترف بفضل علمها وغزارة معارفها العلامة : الزمخشري وهو صاحب التفسير المعروف للجميع وهذه « أم عبد الواحد » العالمة الجليلة التي كانت من أحفظ أهل عصرها بمذهب الإمام الشافعي كما كانت تحفظ القرآن عن ظهر قلب وكانت حدثة بأحاديث الرسول ﷺ فأخذ عنها كثير من العلماء وهي بعد ذلك كله كانت ممن يشار إليها بأنواع العلوم وأنواع المعارف مع أدب جم وأخلاق فاضلة كريمة وظلت هكذا حتى توفيت في رمضان عام ٣٠٧ من الهجرة المباركة.

وهذه « كريمة بنت محمد » بن حاتم المرزوية وقد

كانت نابغة أهل زمانها في قوة الذهن ونباهة العقل مما جعل العلماء يتهافتون عليها لتزودهم بالمعارف والعلوم وقد مكثت في مكة المكرمة مجاورة وهنالك كانت تروي صحيح البخاري عن الكشمهيني وظلت هكذا دائرة معارف حتى أتاها أجلها المحتوم سنة ٤٦٣ من الهجرة المباركة بعد أن بلغت من العمر مائة عام.

وهذه « زبيدة » زوجة هارون الرشيد ومن منا يجهلها وكذلك « إبنة » حسان بن زيد الثقفي « وأم عمر » فقد كانت ثلاثتهن من أهل العلم والحديث وهن ممن أخذ الحديثَ عنهن إمامنا الجليل « أحمد بن حنبل » وإذا علمنا من هو الإمام أحمد بن حنبل كفاهن هذا علما وأدبا وفخرا وثقة وهكذا نجد ماضي المسلمات فلقد كان من حق التاريخ على الناس أن يصاغ من جديد. حتى تعرف مواضع الاقدام على حقيقتها فتزال منها تشويهات الأعداء وتضليلاتهم.

هكذا ولقد كان من بينهن من طفرن بعيدا عن دائرة فطرتهن السليمة وأصبحن في موضع لا يناسبهن. إلا انهن قد أظهرن براعة واحتمالاً، فكن موضع الفخر لرصيفاتهن في هذا الجانب وسرن في طريق السلطة حتى سلمن الملك والسلطان لمن بعدهن.

فهذه « غاذية » بنت السلطان الملك محمد بن أبي بكر

ابن أيوب ووالدة الملك المنصور صاحب (حماة) حفظت الملك في سيرة حسنة وسياسة حكيمة. لولدها بعد وفاة ابنها الملك « العزيز » وتصرفت في الملك ببراعة وحنكة فائقين وتصرفت بحزم ولا عجب فقد كن كذلك وحتى في ساحة القتال فهذه « الزرقاء » بنت عدى في حرب صفين وهي مع « علي » تقول : أيها الحرب، قدمنا غير ناكصين، ولا متشاكسين.. »[1] فأي مجال بعد هذا.. لم يطرقنه، وأي جانب لم يخبرنه ؟ فقد بذلن ما في إمكانهن ولم يجافين فطرتهن أو يخرجن عن إطار جنسهن فسلام من الله عليهن ورحمة منه وبركات.

علي يوسف علي

---

(١) وقد تقدم هذا النص بالمزيد..

فهرس

كتب للمؤلف

(١) جهاده ﷺ
(٢) تحطيب فيما دخل السيرة من غريب
(٣) قطوف دانية — الجزء الأول
(٤) الرجل والمرأة في الإسلام
(٥) حصاد العام في مجالسة العوام — إسلاميات، وفقهيات
(٦) هدية الإسلام
(٧) هدية العروبة — دواوين شعر
(٨) الدنيا
(٩) نبضات قلب
(١٠) الحبيب المرعب — مجموعة قصص قصيرة
(١١) خواطر علوية — الجزء الأول
(١٢) نهاية اللّجاج في موضوع المعراج
(١٣) الإسلام ومشكلات العصر
(١٤) صلاتك أيها المسلم !

(١٥) الإسلام وقضايا الشباب

(١٦) سلسلة مع الخالدين ــ للشباب تشتمل على ١٢ عبقرياً من علماء المسلمين.

(١٧) حجك أيها المسلم.